مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة - تصدر سنويًا

العدد
السادس عشر
1999

1429 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1999 إفرنجي

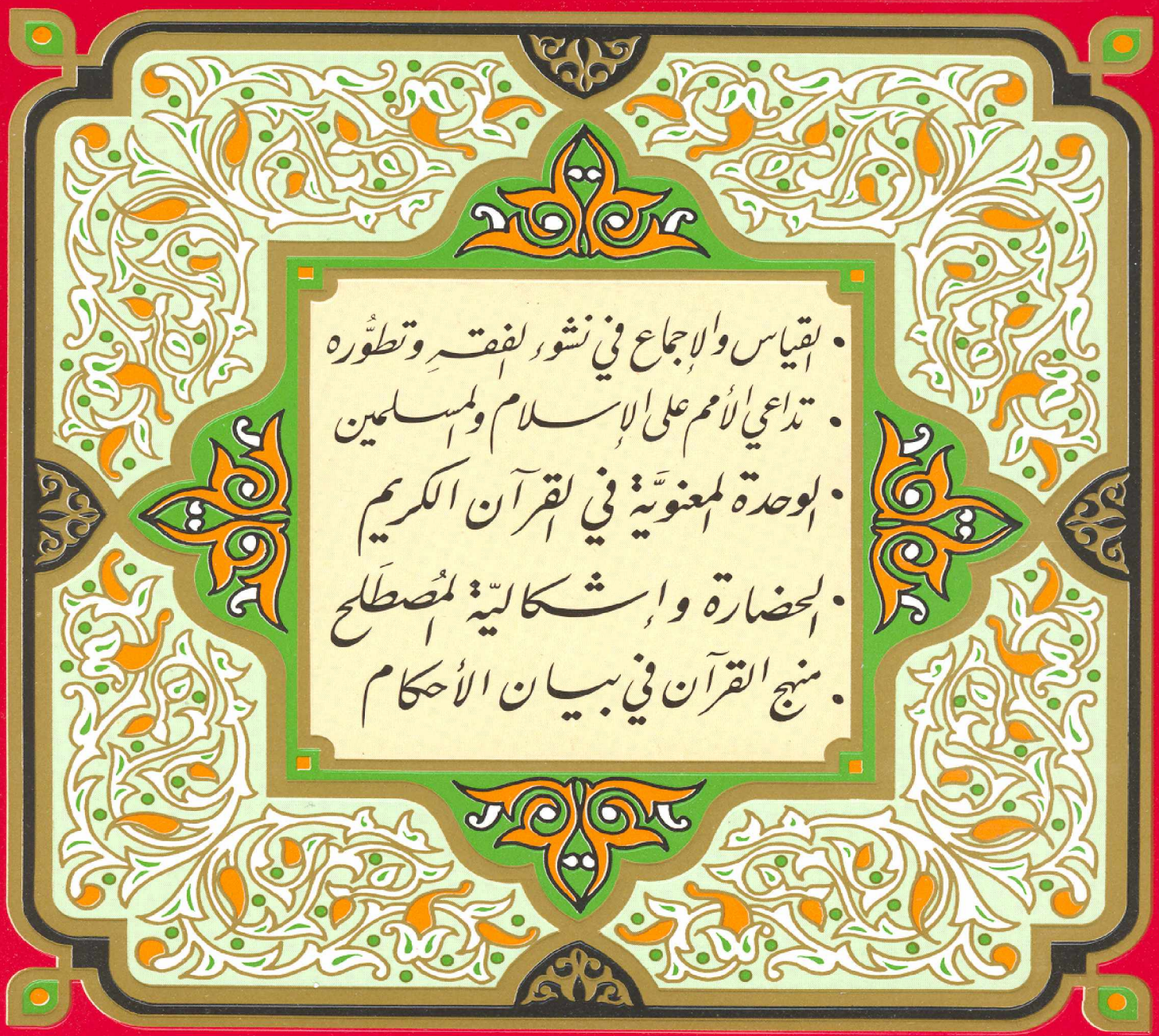

دراسات لُغَوِيَّة في النّص القرآني

«الآيتين 1 ـ 2 من سورة الحج»

د. عبد الستار عبد اللطيف أحمد

الجامعة المفتوحة ـ كلّية التربية وتدريب

إن الدراسات التي قامت حول القرآن الكريم متنوعة وكثيرة، وقد كان للغويين النصيب الأوفى منها، وقضايا البحث اللغوي متعددة، ودراسة تلك القضايا من خلال النصوص الراقية ـ وأرقاها القرآن ـ من أنجع الوسائل لفهمها، والوقوف على ما قدمه الباحثون فيها. وفيما يلي كشف عن بعض ما أثاره اللغويون في الآيتين التاليتين: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج: 1].

صُدّرت الآية الكريمة بطلب هو النداء بالحرف «يا»، والمقصود بالنداء «الناس»، ورأي «الزمخشري» أن «يا» حرف وضع في أصله لنداء البعيد... ثم استعمل في مناداة من سها وغفل، وإن قرب، تنزيلاً له منزلة من بعد، فإذا نودي

به القريب الفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جداً، ثم يسوق «الزمخشري» ما يمكن أن يكون اعتراضاً على ما قرره، ويجيب عنه، فيقول: «فإن قلت فما بال الداعي يقول في جؤاره ـ رفع الصوت إلى الله بالدعاء ـ يا رب، يا الله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأسمع به، وأبصر؟ قلت: هو استقصار منه لنفسه، واستبعاد لها من مظان الزلفى، وما يقربه إلى رضوان الله، ومنازل المقربين، هضماً لنفسه، وإقراراً عليها بالتفريط في جنب الله، مع فرط التهالك على استجابة دعوته، والإذن لندائه وابتهاله»[1].

وقال «الدسوقي» شارحاً قول «الزمخشري»: «رأي الزمخشري أن «يا» حقيقة في نداء البعيد، ولا تستعمل في القريب إلا مجازاً لتنزيله منزلة البعيد، إما لاستبعاد الداعي نفسه من مرتبة المنادى، أي تصور نفسه في مكان بعيد عن تلك الحضرة كقولنا: يا الله؛ مع أنه أقرب إلينا من حبل الوريد، أو للتنبيه على عظم الأمر المدعو إليه، وعلو شأنه حتى كأن المُنادى مقصر في أمره غافل عنه، مع شدة على الامتثال نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67]، أو للحرص على إقبال المنادى، أي الرغبة والرضا بذلك... أو للتنبيه على بلادة المنادى وكأنه بعيد من التنبيه، لا يسمع، نحو: تنبه أيها الغافل واسمع، أو لانحطاط شأنه، فكأنه بعيد من مجلس الحضور، نحو: من أنت يا هذا؟[2].

من خلال ما سبق، يتضح أن البلاغيين قد ارتضوا أن الحرف «يا» يستعمل في نداء البعيد حقيقةً، فإن كان المنادى قريباً ونودي بـ«يا» فذلك على سبيل المجاز، تنزيلاً له منزلة من بعد لاعتبارات مختلفة، بعضها خاص بالمنادي ـ بكسر الدال ـ وبعضها الآخر خاص بالمنادى ـ بفتح الدال ـ أو الأمر المنادى من أجله، وتلك اعتبارات أقرب للدراسة البلاغية، حيث إنَّ فيها مراعاة لمقتضى الحال.

ويرى «ابن هشام» في كتابه: «مغني اللبيب» أن «يا» حرف موضوع لنداء البعيد حقيقة أو حكماً، وقد يُنادى به القريب تأكيداً، ثم يقول أيضاً: وقيل:

---

(1) انظر الكشاف 1/ 224، 115.

(2) انظر شروح التلخيص 2/ 334، علوم البلاغة ص76.

مشتركة بين القريب والبعيد وما بينهما وهو المتوسط[3]، هذا وقد رأى «ابن الحاجب» «أن الحرف» يا يُنادى به القريب والبعيد حقيقةً على السواء، ودعوى المجاز في أحدهما أو التأويل خلاف الأصل[4].

وقال أبو إسحاق الزجَّاج في إعراب «أيها الناس»: «أي» اسم مبهم مبني على الضم، لأنه منادى مفرد، وهو في محل نصب، لأن «يا» قائم مقام فعل محذوف، و«الناس» صفة لأي، تقول: يأيها الرجل أقبل، ولا يجوز: يا الرجل، ثم علل عدم جواز يا الرجل قائلاً: لأن «يا» تنبيه بمنزلة التعريف في الرجل، فلا يجمع بين «يا» وبين الألف واللام فتم التوصل إلى نداء ما فيه الألف واللام بـ «أي»[5].

ويقول «الرضي» في شرح كافية ابن الحاجب: ولما قصدوا الفصل بين حرف النداء وما فيه «أل» بشيء طلبوا اسماً مبهماً غير دال على ماهية معينة، محتاجاً في الدلالة عليها إلى شيءٍ آخر، يقع النداء في الظاهر على هذا الاسم المبهم لشدة احتياجه إلى مخصصه الذي هو ذو اللام[6].

وقال «الزمخشري»: «أي» وصلة إلى ما فيه الألف واللام ـ الناس ـ وهو ـ أي ـ اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بد أن يردفه اسم جنس، أو ما يجري مجراه، حتى يتضح المقصود بالنداء[7]، و«ها» لازمة لـ«أي» للتنبيه، وهي عوض من الإضافة في «أي»، لأن أصل «أي» أن تكون مضافة في الاستفهام والخبر[8]، وفي الكشاف للزمخشري أن «ها» مقحمة بين الصفة ـ الناس ـ والموصوف، وهو «أي» لفائدتين:

أ ـ معاضدة النداء ومكاتفته بتأكيد معناه.

---

(3) انظر مغنى اللبيب 488، ومثله «البرهان» 4/ 445.

(4) انظر شرح الرضي على كافية ابن الحاجب 4/ 425.

(5) انظر معاني القرآن وإعرابه 1/ 99 بتصرف يسير..

(6) انظر شرح الرضي 1/ 374.

(7) انظر الكشاف 1/ 225.

(8) انظر معاني القرآن وإعرابه 1/ 99.

ب ـ وقوع الهاء عوضاً مما يستحقه «أي» من الإضافة[9]، وقد لحظ «الزركشي» في كتابه «البرهان في علوم القرآن»، أن حرف الألف قد حذف من «ها» في «أيها» في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم منها موضعان حذف منهما حرف النداء أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: 31] ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: 31]، وموضع واحد مع وجود حرف النداء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ﴾ [الزخرف: 49].

وقد كشف عن سر الحذف لذلك الحرف قائلاً: والسر في سقوط الألف في هذه الثلاثة: الإشارة إلى معنى الانتهاء إلى غاية، ليس وراءها في الفهم رتبة يمتد إليها النداء، وتنبيه على الاقتصار والاقتصاد من حالهم، والرجوع إلى ما ينبغي[10].

ولقد لحظ «الزمخشري» أنَّ في هذا التركيب «يأيها الناس» تدرجاً من الإبهام الذي في لفظ «أي» إلى التوضيح بلفظ «الناس»، وقد أحدث ذلك تأكيداً وتشديداً، ثم قال عن ذلك التركيب أيضاً: الذي يعمل فيه حرف النداء هو: أي، والاسم التابع له صفته، كقولك: يا زيد الظريف، إلا أن «أيّاً» لا يستقل بنفسه استقلال «زيد»، فلم ينفك من الصفة[11]، هذا و«أي» مبني على الضم في محل نصب، لأن حرف النداء «يا» قائم مقام فعل، ونظراً لذلك جاز أن يُنطق بالإمالة ـ أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء ـ والتركيب «يأيها الناس» جملة، سدَّ حرف النداء فيها مسد الفعل، والفاعل محذوف، وذلك هو رأي المبرد[12].

وقد جاء في «شرح التسهيل» لابن مالك قوله: (وأجاز «المازني» نصب «أي»، قال «الزجاج»: ولم يجز أحدٌ من النحويين هذا المذهب قبله، ولا تابعه

---

(9) الكشاف 1/ 225.

(10) انظر البرهان 1/ 396..

(11) انظر الكشاف 1/ 225.

(12) انظر شرح الرضي 1/ 346.

عليه أحد بعده، ذكر هذا الزجاج في كتابه «المعاني» عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 153][13]، وبالرجوع إلى كتاب «معاني القرآن وإعرابه»، لأبي إسحاق الزجاج تحقيق الدكتور/ عبد الجليل شلبي 1/ 228، 229 وجدت صدق ما قاله صاحب شرح التسهيل.

والرفع في «الناس» في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أمر لازم، لأنه المقصود بالنداء، فكأن حرف النداء قد باشره[14]، ورفعه ـ أي الناس ـ على أنه وصف لأي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وقيل: إن الرفع على أنه بدل من أي، أو على أنه عطف بيان، يوضح ويزيل ما في «أي» من الإبهام، ورجح ذلك على القول بالوصفية[15]، وذهب «الأخفش» في أحد قوليه إلى أن المرفوع بعد «أي» في التركيب السابق ـ يأيها الناس ـ خبرٌ لمبتدأ محذوف، و«أي» موصولية، فإذا قلت: يأيها الرجل، فالمعنى: يا من هو الرجل، ورد المازني وابن مالك ذلك الرأي؛ لأن «أيّاً» لو كانت موصولية لجاز وصلها بالظرف والمجرور، والجملة الفعلية، ولا قائل به، بل هو ممتنع، ولو كان ما بعد «أي» خبراً لمبتدأ محذوف لجاز ظهور المبتدأ؛ لأنه ليس من مظانِّ حذف المبتدأ[16]، وذكر «جلال الدين السيوطي» في كتابه «همع الهوامع» ما يمكن أن يقال في الرد على من رفض رأي الأخفش[17].

هذا، وقد أجاز «المازني» نصب الناس قياساً على قولنا: يا محمد العاقلَ برفع العاقل مراعاة للفظ المنادى، ونصبه مراعاة للمحل[18]؛ لأن «محمداً» مبني على الضم في محل نصب، وقال «ابن الأنباري» عن ذلك الرأي: «وهو عندي القياس، لو ساعده الاستعمال»[19]، أي إن الاستعمال في اللسان العربي لم

---

(13) انظر شرح التسهيل. تحقيق د. عبد الرحمن السيد والدكتور محمد المختون 3/ 400.

(14) انظر شرح الرضي على كافية ابن الحاجب 1/ 377.

(15) انظر حاشية الصبان على الأشموني 3/ 100.

(16) انظر شرح الأشموني مع حاشية الصبان 3/ 101، وشرح التسهيل لابن مالك 3/ 400.

(17) انظر همع الهوامع 3/ 52.

(18) انظر معاني القرآن وإعرابه 3/ 409.

(19) انظر أسرار العربية 229.

يُدعِّم ذلك القول، وفي ذلك إشارة إلى رفضه، اعتماداً على ما جرى به اللسان العربي في الاستعمال، وذلك ما يجعلنا نقول: إن بعض النحويين كان يصف ما جرى به اللسان العربي، ويستنبط القاعدة النحوية من خلاله.

وقد حكم على رأي «المازني» في تجويزه نصب «الناس» بالغلط؛ حيث إن هناك فرقاً بين «يأيها الرجل» و«يا محمد العاقل» فقولنا: «يأيها الرجل» لا يصح فيه الاستغناء عن «الرجل»، لأنه مقصودٌ بالنداء، وموضح ومزيلٌ للإبهام الذي في «أي»، أما قولنا: يا محمدُ العاقلُ، فيصحُّ فيه أن يُستغنى عن الوصف ويكتفي بالمنادى فقط[20]، وهنا نلحظ أن «النحويين» كانوا يقيمون الفروق بين التراكيب في تجويز الأوجه الإعرابية، فما يجوز قوله في لفظة في تركيب، لا يجوز أن يقال في مشابهٍ في تركيب آخر، لأن الدلالة تختلف، ويجوز في واحد ما لا يجوز في الآخر، كما نلحظ مراعاتهم الاستعمال العربي الفصيح، هذا وقد قيل عن رأي «المازني» السابق: بأنه غير معروف، وبأنه ضعيف، وبأن ما أجازه غير معروفٍ في كلام العرب، ولم يُجز أحدٌ من النحويين هذا المذهب قبله، ولا تابعه عليه أحدٌ بعده، فهذا مطروح مرذول لمخالفته كلام العرب، والقرآن، وسائر الأخبار[21].

والغريب أن يقول «الصبان» في حاشيته على شرح الأشموني[22] إن «ابن الباذش»[23] ذكر أن رأي «المازني» مسموع من لسان العرب، فقد قرئ في الشواذ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: 1] بنصب «الكافرون»؛ وقد بحثت في «المحتسب» لابن جني، وفي «مختصر شواذ القراءات» لابن خالويه، وفي القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب لـ«عبد الفتاح القاضي»، و«البحر

---

(20) انظر معاني القرآن وإعرابه، 3/ 409.

(21) انظر تاج العروس «أي» 10/ 39، والتبيان في إعراب القرآن للعكبري 1/ 38، ومعاني القرآن وإعرابه 1/ 229،

(22) انظر حاشية الصبان علي الأشموني: 3/ 101.

(23) هو أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي أبو جعفر المعروف بابن الباذش النحوي ابن النحوي ألف «الإقناع» في القراءات توفي 540هـ. انظر البغية 1/ 338، وتاج العروس 4/ 281.

المحيط» لأبي حيان، فلم أجد أثراً لهذه القراءة. وقد ذكر ابن الجزري أن كتاب الإقناع في السبع من أحسن الكتب ولكنه ما يخلو من أوهام نبهت عليها في كتابي الأعلام»[24].

هذا، وبعد عرض ما سبق من تحليل التركيب «يأيها الناس»، يبدو لي أن تحليله الإعرابي كالتالي:

1 ـ «يا» حرف نداء، للبعيد والقريب، والمتوسط، ولا داعي لتخصيصه بالبعيد فقط.

2 ـ هذا الحرف ـ يا ـ قائم مقام فعل محذوف، ولذلك جاز أن ينطق بالإمالة، لأن الحروف لا تمال.

3 ـ «أي» منادى مبني على الضم في محل نصب.

4 ـ «ها» حرف تنبيه، يعضد النداء ويقويه،

5 ـ لفظ الناس يوضح الإبهام الذي في «أي»، ولذلك يُعْرَبُ بدلاً أو وصفاً، وهو مرفوع، ولا يجوز نصبه.

وقد رأى بعض المحدثين أن أسلوب النداء قائم على شيئين: أداة نداء، ومنادى، ومنهما ينشأ مركب لفظي ليس فيه معنى فعل مقدر، وليس فيه إسناد، ولا يصح عَدُّه في الجمل الفعلية كما قصد النحاة[25]، إلا أننا نميل إلى تحليل الزمخشري لهذا الأسلوب، وقضية التقدير للفعل ما هي إلا شرح وتفسير، ولا يجوز إظهاره، بل هي صناعة تفسر بها الظاهرة فقط، وهنا نسوق نصاً لسيبويه، رحمه الله، يقول: قولك: يأيها الرجل، أيُّ ههنا فيما زعم الخليل ـ رحمه الله ـ كقولك: يا هذا الرجل، والرجل وصفٌ له كما يكون وصفاً لهذا، وإنما صار وصفه لا يكون فيه إلا الرفع، لأنك لا تستطيع أن تقول: يا أيُّ ولا يا أيها وتسكت، لأنه مبهم يلزمه التفسير، فصار هو والرجل بمنزلة اسم واحد، كأنك

(24) غاية النهاية في طبقات القراء ج1/ ص83 ترجمة، رقم 376.

(25) النحو العربي نقد وتوجيه 304.

قلت: يا رجل[26]، وقال سيبويه أيضاً: كل اسم مضاف فيه ـ النداء ـ فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره، والمفرد رفع، وهو في موضع اسم منصوب[27].

ولفظ «الناس» أصله: الأناس؛ فالهمزة فيه أصلية، ثم حذفت تخفيفاً، وجعلت الألف واللام عوضاً من الهمزة، وقد جاء ذلك الأصل في قول الشاعر:

إن المنايا يطّلعن على الأناس الآمنينا[28]

وجاء ذلك الأصل أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: 71]، وهنا نلحظ أن افتراض اللغويين أن الأصل في لفظ «الناس» هو «الأناس» قد صُدِّق بنصوص تقضي بصحة ما افترضوه، وقد حدث خلاف لغوي حول مادة «الناس»، فقال بعضهم: إن أصله «نوس» من ناس ينوس إذا تحرك، وبعضهم رأى أن أصله «أناس» من الأنس، وهناك من ارتضى أن أصله «نسي» من النسيان، ثم حدث فيه تقديم اللام وتأخير العين، فصار «نيس» ثم تحركت الياء وفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار «ناس»[29]، وغير خاف أن وزن «ناس» «فعل» على الرأي الأول، و«عال» على الثاني، و«فلع» على الثالث...

وجاء في «المصباح المنير» أن «الناس» اسم وضع للجمع، كالقوم، والرهط، وواحده: إنسان «من غير لفظه»[30]، وفي «القاموس المحيط»: «والناس قد يكون من الإنس والجن، وجمع «إنس» أصله ـ الناس ـ أناس، وهو جمع عزيز أدخل عليه «أل»[31]، ومما جاء في جمع «فعل» على «فعال» ظئر ـ العاطفة على غير ولدها، المرضعة له من الناس والإبل، الذكر والأنثى فيه سواء ـ، وظؤار وهو ـ ظؤار ـ من الجمع العزيز[32].

---

(26) كتاب سيبويه 2/ 188.

(27) كتاب سيبويه 2/ 182.

(28) انظر لسان العرب «أنس» 1/ 147.

(29) انظر عمدة الحفاظ 4/ 2716، والبحر المحيط 1/ 52.

(30) المصباح المنير «نوس»، ص241.

(31) انظر القاموس المحيط «نوس» 747، وتفسير التحرير والتنوير 1/ 416.

(32) انظر لسان العرب «ظأر» 4/ 2741.

ويقال في لفظ «الناس» «النات»، بالتاء مكان السين، ذكر ذلك «ابن خالويه» في كتابه: مختصر شواذ القرآن، فقال في «شواذ سورة الناس» في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: 1] «برب النات» بالتاء، حكاه أبو عمرو، وهي لغة «قضاعة»[33]، وجاء في النوادر لأبي زيد الأنصاري قوله[34]: وقال: علباء بن أرقم:

يـا قـبـح الـلّـهُ بـنـي الـسـعـلاة
عـمـرَو بـن يـربـوع شـرار الـنـات
غـيـرَ أعـفّـاء ولا أكـيـات

أراد شرار الناس، ولا أكياس، وفي «لسان العرب» تعليل لهذا العمل اللساني فقال: أبدل التاء من السين، لموافقتها إياها في الهمس، والزيادة، وتجاوز المخارج[35]، لكن أبا زيد قال في النوادر[36]: «قال أبو الحسن: هذا من قبيح البدل، وإنما أبدل «التاء» من «السين» لأن في «السين» صفيراً فاستثقله، فأبدل منها التاء، وهو من قبيح الضرورة».

ويلحظ مما سبق أن «ابن منظور» ذكر مسوغ إبدال «التاء» من «السين» وهو:

أ ـ تقارب التاء والسين في المخرج.

ب ـ توافقهما في صفة الهمس.

ج ـ توافقهما في الزيادة.

كما نلحظ أن «أبا زيد» في نوادره قد سوَّغ الإبدال، لأن في السين صفيراً فاستثقله، فأبدل منها التاء، وذكر أبو زيد رأي أبي الحسن الأخفش في أن ذلك

(33) انظر مختصر شواذ القرآن ص183.

(34) انظر النوادر، تحقيق د. محمد عبد القادر أحمد، منشورات جامعة الفاتح، ص345، وانظر الأمالي لأبي علي القالي 2/ 68.

(35) انظر لسان العرب «أنس» 1/ 148.

(36) انظر النوادر لأبي زيد. ص345.

البدل قبيح، وأنه من قبيح الضرورة... وفي لهجات العرب لتيمور... نقلاً عن القاموس وشرحه... عن ابن زيد وهو من البدل الشاذ[37].

ونقول هنا: «من سنن العرب إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض»[38]، ولهم في إبدالهم حرفاً مكان آخر مسوغات[39]، وقد ذكر صاحب كتاب «اللهجات العربية في التراث»[40] أن «التاء» أبدلت من «السين» في لغة «جرم» و«جهينة» من قضاعة؛ لأنهما يأخذان بقسط وافرٍ من البداوة، والبداوة يناسبها استعمال الصوت الشديد وهو «التاء»، وترك الصوت الرخو وهو: «السين»، وهنا نلحظ ارتباط ذلك الإبدال بالبيئة الجغرافية، فما يقال في البيئة الصحراوية البدوية يختلف عما ينطق به اللسان في البيئة الموغلة في البداوة، ثم إن بين الصوتين توافقاً في الهمس، وقرب المخرج. هذا، وإبدال «التاء» من «السين» يطلق عليه اللغويون مصطلح «الرتم»[41]، وإذا كان ذلك الإبدال يمكن أن يقال عنه في الشعر إنه من قبيح الضرورة، كما قال بذلك «أبو زيد» في «النوادر»، فإننا لا نستطيع القول بذلك في القرآن الكريم حيث إنه لا ضرورة في القرآن، ولكن يمكن أن نقول: إن ذلك الإبدال نادر، كما وصفه الرضي في شرح الشافية[42].

ومن خلال النظر في التركيب القرآني «يأيها الناس» نلحظ أن حرف النداء يا «متباعد عن الناس» فلم يحدث التصاق صوتي بين «يا» و «الناس» المعرَّفة بالألف واللام، بل سُلط حرف النداء على اللفظ المبهم «أي» وزيدت «ها» المنبهة المقوية للنداء، ثم وضح الإبهام بلفظ «الناس» المقصود بالنداء، وقد تساءل ابن الأنباري في كتابه «أسرار العربية»[43] قائلاً: «فإن قيل: فَلِم لَمْ

---

(37) لهجات العرب، لأحمد تيمور، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص121.

(38) انظر «الصاحبي»، ص333.

(39) انظر دراسات في فقه اللغة ص216 وما بعدها.

(40) هو الدكتور أحمد علم الدين الجندي. انظر 1/ 385.

(41) انظر اللهجات العربية في التراث 1/ 385، نقلاً عن «اللغات واللثغات»، مقال للأب أنستاس الكرملي، في مجلة المشرق، السنة السادسة، عدد 12، عام 1903م.

(42) انظر المرجع السابق، نفس الصفحة، وشرح الشافية 3/ 221.

(43) انظر ص229.

يجمعوا، أي العرب، بين «يا» و«الألف واللام»؟ قيل: لأن «يا» تفيد التعريف، والألف واللام تفيد التعريف، فلم يجمعوا بين علامتي تعريف، إذ لا تجتمع علامتا تعريف في كلمة واحدة».

وهنا نلحظ أن «النحوي» يعلل للظواهر اللغوية بما يجعل ما قضى به اللسان العربي هنا ـ عدم الجمع بين «يا» والألف واللام ـ أمراً مرتكزاً في الطبع، مرتاحة إليه النفس، وإن وجد من كلامهم ما يخالف ذلك الأمر؛ تلمس له مخرجاً، وقد بين ذلك الأنباري في قوله: «فإن قلت: فكيف جاز الجمع بين «ياء» و«الألف واللام» في قول القائل:

فديتكِ يا التي تَيَّمْتِ قلبي وأنتِ بخيلة بالود عني

قلت: جمع بين «يا» و«الألف واللام»؛ لأن الألف واللام في «التي» ليستا للتعريف؛ لأنه إنما يتعرف بصلته، لا بالألف واللام، فلما كانا فيه زائدتين لغير التعريف جاز أن يجمع بين «يا» وبينهما، وأما قول القائل الآخر:

فيا الغلامان اللذان فرّا إيَّاكما أن تكسباني شرّاً

فالتقدير فيه: فيا أيها الغلامان، فحذف الموصوف ـ أيُّ ـ وأقام الصفة ـ الغلامان ـ مقامه لضرورة الشعر، وما جاء لضرورة الشعر لا يورد نقضاً[44]، ورأى ابن مالك في شرح التسهيل أنه لا ضرورة شعرية في البيت الأخير لتمكن قائله من أن يقول: فيا غلامان اللذان فرا، ورأى أن ذلك الاستعمال ـ مجيء ذي الألف واللام بعد «يا» مباشرة ـ شاذ[45]. هذا، وقد جاء في كلام العرب دخول «يا» على ما فيه الألف واللام ومن ذلك قولهم: يا الله، وقد أشار إلى ذلك سيبويه في كتابه، حيث قال: واعلم أنه لا يجوز أن تنادي اسماً فيه الألف واللام البتة، إلا أنهم قالوا: يا أله اغفر لنا، وذلك من قِبَلِ أنه اسم يلزمه الألف واللام لا يفارقانه، وكثر في كلامهم فصار، كأن الألف واللام من نفس حروف الكلمة، وليس بمنزلة الذي قال ذلك من قِبَل أن الذي قال ذلك، وإن كان لا

(44) انظر أسرار العربية ص230، 231، والإنصاف في مسائل الخلاف 1/ 338، وخزانة الأدب للبغدادي 2/ 294.

(45) انظر شرح التسهيل لابن مالك 3/ 399.

يفارقه الألف واللام، فليس علماً[46]، ويلفظ اسم الجلالة في (يا أله) بقطع الهمزة، لأنها، لعدم مفارقتها له، صارت كجزء من الكلمة[47]، والأكثر في نداء لفظ الجلالة أن يقال: اللهم، والميم عوض عن ياء النداء، وقد يجمع بينهما كقول القائل:

إنـــي إذا مـــا حَـــدَثٌ أَلـــمَّـــا أقـولُ يـا الـلّـهُـمّ يـا الـلّـهُـمّـا

وهو شاذ في الشعر[48] وقد أجاز سيبويه أن يقال: «يا الرجل قائم» في المسمى «بالرجل قائم» لأن معناه يا مقولاً له الرجل قائم، وأجاز «ابن سعدان» أن يقال: يا الأسد شِدةً، لأن تقديره يا مثل الأسد، وأجاز الكوفيون دخول «يا» على ما فيه الألف واللام مطلقاً[49].

وقد جاء ذلك التركيب؛ «يأيها الناس» في الأسلوب القرآني «21» مرة[50]، وجاء مرة واحدة محذوف أداة النداء «يا» في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: 133]، وهو معلوم من السياق، ونلحظ أن «أيّاً» مذكر، وقد جاء مؤنثاً لتأنيث صفته في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: 27].

وقد أُعقب النداء المؤكد بفعل أمرٍ هو قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، وقد قرر الصرفيون أن فعل الأمر «اتقوا» فيه إبدال، حيث إنَّ أصله: اوْتقوا، وقعت الواو فاءً قبل التاء في مادة «الافتعال» فأُبدلت تاء، ثم أدغمت التاءُ في تاء الافتعال، وذلك الإبدال يكون في الماضي والمضارع، واسم الفاعل واسم المفعول، والمصدر، فالماضي: «اتقى»، أصله: اوْتقى، والمضارع يتقي أصله «يوْتقي»، واسم الفاعل مُتّقي أصله: موتقي، واسم المفعول مُتّقى، أصله مُوتقى، والمصدر اتقاء أصله «اوتقاء»، أبدلت الواو تاءً في جميع تصاريف الكلمة، ثم أدغمت في تاء الافتعال. ومن شواهد الماضي في القرآن الكريم

---

(46) كتاب سيبويه 2/ 195.

(47) كتاب الإملاء للشيخ حسين والي ط(2) ص66.

(48) ينظر شرح الأشموني لألفية ابن مالك مع حاشية الصبان، ط. دار إحياء الكتب العربية، ج3 ص146.

(49) شرح التسهيل 3/ 398.

(50) سيتم عرضها فيما يلي.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ [آل عمران: 76]، ومن شواهد المضارع قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2]، ومن شواهد اسم الفاعل قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]، وجاء ذلك الإبدال في قول الأعشى:

فإن تتَّعِدني أتَّعِدْك بمثلها وسوف أزيد الباقيات القوارصا

«تتَّعدني» مضارع أصله: توْتعدني، و«أتعدك» مضارع أصله: أَوْتعِدُك، أُبدلت الواو تاءً فيهما، ثم أدغمت التاء في تاء الافتعال[51]، ومثل إبدال الواو تاءً، «الياء»، فإذا وقعت فاء لافتعل وما اشتق منه فإنها تقلب تاء ثم تدغم في تاء «افتعل»، وذلك مثل: «اتَّسر الأمر»[52] الأصل: ايْتسر، وقعت فاء الافتعال ياءً، فقلبت تاءً، ثم أُدغمت الياء في التَّاء، ونقول في المضارع: يتَّسِر، وفي الأمر: اتَّسِر، والمصدر: اتِّسار، واسم الفاعل: مُتَّسِر، واسم المفعول: مُتَّسَر، والأول فيما سبق على التوالي: يِيتسر، ايتسر، ايتسار، مُيْتَسِر، ومُيتسَر، قلبت «الياء» تاءً ثم أدغمت التاء في التاء، وقد لحظ الصرفيون ما دعا إلى هذا الإبدال في «الواو»، قال الرضي في شرح الشافية: اعلم أنَّ «التاء» قريبة من الواو في المخرج لكون التاء من أصول الثنايا، والواو من الشفتين[53]، و«التاء» حرف مهموس، والهمس مناسب لين الواو[54]، وقد قرر الصرفيون أن إبدال الواو والياء تاء في فاء الافتعال مشروط بأن تكون كل منهما أصلية بمعنى: غير مبدلة من الهمزة، ففي مثل «ايتزر» من الإزار، لا تُبدَل الياء تاءً، لأن الياء مبدلة من الهمزة والأصل: ائتزر، وفي مثل أوتمن من الأمن لا تبدل فيه الواو تاء؛ لأن الواو مبدلة من الهمزة، والأصل أؤتمن[55].

ومع ملاحظة أن في إبدال الواو والياء «تاء» في «افتعل» وما تصرف منه خفة ويسراً، حيث يعسر النطق في «اوتقى» و«ايتسر»؛ لأن حرف اللين يعسر

(51) انظر شرح المفصل لابن يعيش 10/ 37.

(52) انظر شرح الشافية 3/ 80، وشرح المفصل 10/ 37، وشذا العرف ص168.

(53) شرح الشافية 3/ 80.

(54) انظر شرح المفصل 10/ 37.

(55) انظر شذا العرف ص168، وشرح الشافية 3/ 80.

النطق به ساكناً مع «التاء» لقرب مخرجيهما، وتنافر صفتيهما، فحرف اللين مجهور، والتاء مهموسة[56]، وبَعْدَ الإبدال هناك خفةٌ ويُسرٌ؛ لأنَّ اللسان ينطق بهما دفعة واحدة بعد الإدغام، على الرغم من ذلك، هناك من عرب أهل الحجاز من ينطق على الأصل دون إبدال، فيقول: ايتعد، وايتزن، وهو: موتعد وموتزن ولكن ذلك قليل، والإبدال أكثر في لسان العرب ولذلك عدوه مقيساً[57]، وقد لحظت أن قلب الياء تاء في «افتعل» وما تصرف منه قليل، ومنه قول العرب: «اتأس» من يئس، وهو ـ اتأس ـ على وزن افتعل، وأصله: ايتأس، أبدلت الياء تاءً ثم أُدغمت في «التاء» مثل «اتعد»[58]، وقالوا أيضاً من «يبس» اتبس، يتبسُ، أبدلوا التاء من الياء[59].

وفعل الأمر «اتقوا» أمر مبني على حذف النون[60]، وواو الجماعة ضمير متصل مبني على السكون في محل رفع فاعل، والأمر «اتقوا» محذوف اللام وأصله: اوتقيوا، استثقلت الضمة فوق الياء، فحذفت، ثم حذفت الياء لسكونها، وسكون واو الجماعة، ثم ضمت القاف مناسبةً للواو[61]، وبهذا نلحظ جنوح اللسان العربي إلى حذف ما يعسُرُ به النُّطق فيتم بالانسجام بين حروف الكلمة، ففاء الكلمة: اوتقيوا أبدلت تاء، ثم أدغمت، فنطق بهما اللسان دفعة واحدة، ثم استثقلت الضمة فوق الياء فحذفت، فبقيت الياء ساكنة، فحذفت «الياء» لام الكلمة، وبقيت واو الجماعة لدلالتها على معنى الفاعلية، ثمَّ ضُمت القافُ ليتم الانسجام بين الضمة والواو.

وفي التركيب القرآني السابق ـ اتقوا ربكم ـ حذف المضاف، والتقدير: اتقوا عذاب ربكم، وقد أشار إلى ذلك «أبو حيان» حيث قال في تفسير «النهر الماد من البحر» التقدير: اتقوا عذاب ربكم، وقال صاحب تفسير «التحرير

---

(56) انظر منار السالك 2/ 416، وشرح الشافية 3/ 80.

(57) انظر شرح المفصل 10/ 37.

(58) انظر لسان العرب «يئس» 6/ 4946.

(59) المرجع السابق «يبس» 6/ 4947.

(60) انظر منار السالك، ففيه أن الأمر يبنى على ما يجزم به مضارعه.

(61) سبق الحديث عن الواو (فاء الكلمة).

والتنوير»: «وتعليق التقوى بذات الرب يقتضي بدلالة الاقتضاء معنى اتقاء مخالفته، أو عقابه، أو نحو ذلك، لأن التقوى لا تتعلق بالذات، بل بشأنٍ لها مناسبٍ للمقام[62]، وقد ذكر «ابن جني» في كتابه الخصائص، تحت عنوان: «شجاعة العربية» أن المضاف قد يحذف، وهذا كثير واسع[63] في كلام العرب، وقد أشار إلى هذه الظاهرة «موفق الدين بن يعيش في «شرح المفصل» حيث قال[64]: «اعلم أن المضاف قد حذف كثيراً من الكلام، وهو سائغ في سعة الكلام وحال الاختيار إذا لم يُشْكِل، وإنما سَوَّغَ ذلك الثقةُ بعلم المخاطب، إذ الغرض من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا حصل المعنى بقرينة حال أو لفظ آخر استغنى عن اللفظ الموضوع بإزائه اختصاراً، وإذا حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وأعرب بإعرابه»، من خلال النص السابق يبدو ما يلي:

1 ـ ظاهرة حذف المضاف في الكلام العربي كثيرة.

2 ـ يشترط لحذف المضاف من الكلام ألا يوقع في لبس أو إشكال.

3 ـ ما دام المعنى المقصود يفهم من دلالة الحال أو المقام، فلا داعي إلى ذكره اختصاراً.

4 ـ عند حذف المضاف يَحُلُّ المضاف إليه محل المضاف آخذاً حكمه الإعرابي، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ فقد حذف المضاف، وهو: عذاب أو عقاب، وحلَّ المضاف إليه «ربكم» محل ما حذف آخذاً حكمه الإعرابي، وهو النصب، وقد كان مجروراً مع المضاف الذي عُرف تقديره من دلالة الاقتضاء، كما قال «الطاهر بن عاشور».

ومن الشواهد القرآنية على حذف المضاف قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] فالمراد «أهل القرية»؛ لأنه قد علم أن القرية من حيث هي مدرٌ

---

(62) انظر تفسير التحرير والتنوير 17/ 186، وتفسير النهر الماد من البحر على هامش البحر المحيط 6/ 347.

(63) انظر الخصائص 2/ 362.

(64) انظر شرح المفصل 3/ 23.

وحجرٌ لا تُسأل؛ لأن الغرض من السؤال ردُّ الجواب، وليس المدر والحجر مما يُجيب واحدٌ منهما[65]، ومن حذف المضاف من الأسلوب القرآني أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: 177] قدَّر ابنُ جنِّي المضاف المحذوف قائلاً: «أي: بِرُّ من اتَّقى»، فالمضاف المحذوف بعد لفظ «البر»، ثمَّ قال بعد ذلك: «وإن شئت كان تقديره: ولكنَّ ذا البِّر من اتَّقى، فالمضاف المحذوف قبل لفظ البِّر، ولكن التقدير الأول أجود؛ لأنَّ حذف المضاف ضربٌ من الاتساع، والخبر أولى بذلك من المبتدأ؛ لأن الاتساع بالأعجاز أولى منه بالصُّدور»[66]، وهذان التقديران جائزان على قراءة نصب «البر» وتشديد نون لكنَّ، وهناك قراءة بتخفيف نون «لكن» ورفع البر على الابتداء[67] وعلى هذه القراءة، يكون تقدير المضاف المحذوف بعد لفظ «البر» فقط.

وقد أشار «ابن جني» إلى أن «أبا الحسن الأخفش» كان يرى عدم القياس على حذف المضاف، على الرغم من كثرته في الكلام[68]، ونقول هنا: إذا كانت ضوابط حذف المضاف متوفرة، مثل معرفة المحذوف من سياق الكلام، وليس هُناك إلباسٌ في العبارة، فلماذا نقول بعدم القياس على مثل هذا التركيب؟ إن ذلك جائز القياس عليه، وكثرته في الكلام، ومجيئه في الأسلوب القرآني تُبيح لنا أن نقول بالقياس، هذا، ولا يجوز لنا أن نقول: «جاء زيد» ونريد غلام زيد، لأن المجيء يكون له ولا دليل في مثل هذا على المحذوف[69].

وقد سبق القول بأن المضاف إليه يحلُّ محلَّ المضاف بعد حذفه آخذاً حكمه الإعرابي، ولكن جاء في لغتنا العربية حذف للمضاف، وبقاء للمضاف إليه على إعرابه وهو الجر، ولحظ النحويون من خلال النصوص أن ذلك مشروط بما يلي:

---

(65) انظر شرح المفصل لابن يعيش 3/ 23.

(66) انظر الخصائص. 2/ 362.

(67) انظر التبيان للعكبري 1/ 143.

(68) الخصائص 2/ 362.

(69) انظر البرهان في علوم القرآن 3/ 146.

- أن يكون المضاف المحذوف معطوفاً على مضاف موجود في العبارة، موافقٍ له في اللفظ والمعنى، والعاطفُ متصل بالمعطوف، وذلك مثل قول الشاعر:

أكـل امـرىءٍ تـحـسـبـيـن أمـراً ونـارٍ تـوقَّـدُ بـالـلـيـل نـاراً

فالتقدير: «وكل نار»، فحذف المضاف وهو «كل»، وبقي المضاف إليه على إعرابه، لأن المضاف المحذوف قد عُطف على مماثل موجود في العبارة، وموافق له في اللفظ والمعنى، وهو «كل» في أول البيت، واتصل العاطف (الواو) بالمعطوف، وقد يفصل بين العاطف والمعطوف المحذوف فاصل معين هو «لا»، وذلك مثل قول الشاعر:

ولـم أرَ مـثـل الـخـيـر يـتـركـه الـفـتـى ولا الـشـرّ يـأتـيـه الـمـرء وهـو طـامـع

فتقدير البيت ولا مثل الشر، فحذف المضاف وهو «مثل» وهو معطوف على مماثل موجودٍ مشابه له في اللفظ والمعنى، وقد فصل بين حرف العطف (الواو) والمضاف المحذوف بفاصل هو «لا»، وقد بقي المضاف إليه على حالته الإعرابية وهي الجر[70].

وفي قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: 67] قرأ جمهور القرَّاء بنصب الآخرة على أن المضاف محذوف، وحل محله المضاف إليه آخذاً حكمه الإعرابي، والتقدير: عرض الآخرة[71]، ويمكن عدم تقدير مضافٍ محذوف، ويتسلط الفعل «يريد» على «الآخرة» على المفعولية، وعبَّر عن ذلك الوجه العكبري بقوله: «الجمهور على نصب الآخرة على الظاهر»[72]، والمقصود بلفظ الآخرة ما هو سبب لدخول الجنة من إعزاز الإسلام بكثرة القتل في سبيل الله[73]، وقرأ «سليمان بن جمَّازٍ المدني» «الآخرةِ» بالجر، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه باقياً على إعرابه، وهو: الجر، وتقدير

(70) انظر شرح الأشموني 2/ 181.
(71) انظر البحر المحيط 4/ 519.
(72) انظر التبيان 2/ 632.
(73) انظر تفسير الكشاف 2/ 168 بتصرف.

الكلام: والله يريد عرض الآخرة، ومعنى عرض الآخرة «ثوابها»، وأطلق عليه «عرضاً» من باب «المقابلة» مع «عرض الدنيا»، لا أن ثواب الآخرة زائلٌ فانٍ كعرض الدنيا[74]، وقدَّر بعضُهم المضاف المحذوف لفظ «عمل» أي «يريد عمل الآخرة»، بمعنى المؤدي إلى الثواب في الآخرة[75]، ونظراً لأن نسق الآية الكريمة مع قراءة الجر ليس مُتفقاً مع نسق البيتين اللذين استشهد بهما النحاة؛ فالمضاف المحذوف فيها ليس معطوفاً على مماثل له في اللفظ والمعنى، غير مفصول من العاطف، بل في الآية حرف عطف بعده جملة فيها المضاف المحذوف، ونظراً لذلك قال بعض النحويين إن ذلك ـ في الآية على قراءة الجر ـ على غير الغالب[76]، وقال بعضهم إن ذلك شاذٌ قليل[77]، والجدير بالذكر هنا أن قراءة الجرِّ لها توجيه، وما ذكر من تقدير للمضاف المحذوف يتحمله المعنى بل إنه يوضحه، وليس هناك من داع لوصف هذه الظاهرة بأنها على غير الغالب أو أنها شاذة.

هذا و«رَبَّ» في «اتقوا ربكم» ـ مضاف، والكاف ضمير متصل، مبني على الضم في محل جر، مضاف إليه، والميم للجمع، ومعنى: ربكم: خالقكم، ومدبر شؤونكم، وفي التعبير عن الذات العلية بلفظ «الرب» مضافاً إلى ضمير المخاطبين إشعار باستحقاقه أن يُتَّقَى عذابه أو عقابه، فهو، سبحانه وتعالى، لا يأمر إلا بما فيه مصلحة البشر، ولا ينهى إلا عما فيه جلب المفاسد لهم[78]، وجملة «اتقوا ربكم» لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب للنداء[79]، ونلحظ أن النحوي يهتم بالجملة من حيث تكوينها من عناصر مرتبط كل عنصر فيها بالآخر، ويهتم أيضاً بترابط الجمل بعضها ببعض ذاكراً محلها الإعرابي.

فيما سبق نودي الناس، ثم أمروا بحماية أنفسهم من عذاب الله أو عقابه،

---

(74) انظر البحر المحيط 4/ 519، والكشاف 2/ 168 والمحتسب لابن جني 1/ 281.

(75) البحر المحيط 4/ 519، وهناك من قدره «باقي»، انظر شرح ابن عقيل 2/ 78.

(76) انظر منار السالك 1/ 441.

(77) انظر البحر المحيط 4/ 519.

(78) انظر تفسير التحرير والتنوير 17/ 186، بتصرف يسير.

(79) انظر الجدول في إعراب القرآن 17/ 80.

وبعد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، «الزلزلة»: شدة التحريك والإزعاج، وأن يضاعف زليل[80] الأشياء عن مقارها ومراكزها[81]، و«الزلزلة» أحد مصدري الفعل «زلزل» الرباعي المضعف ـ فاؤه ولامه الأولى من جنس، وعينه ولامه الثانية من جنس آخر ـ وقد ورد له في الأسلوب القرآني مصدر آخر هو: زِلزال ـ بكسر الزاي الأولى ـ على وزن فِعلال، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1]، وأما «الزَلزال» ـ بفتح الزاي الأولى ـ فهو اسم، بمعنى اسم الفاعل، مثل «الوَسواس» في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ [الناس: 4] أي: الموسوس[82]، وبنية «فعللة» هي المصدر القياسي للفعل الرباعي الذي على وزن: فعلل مضاعفاً أو غير مضاعف، فنقول: زلزل زلزلة، وزخرف زخرفة، ودمدم دمدمة، ودحرج دحرجة، ووسوس وسوسة، وهكذا، أما صيغة «فِعلال» بكسر الفاء فقد ذهب بعض علماء العربية إلى أنه قياسي في الرباعي الذي على وزن «فعلل» مضاعفاً، وذلك لكثرته فيه دون غيره، فيقال: زلزل زلزالاً، ودمدم دمداماً، ولا يقال بهرج بهراجاً[83]. وفي شرح الشافية للرضي: لا يُقال برقش برقاشاً[84]، لكن، في تاج العروس «للزبيدي» جاء قوله: دحراجاً بالكسر ـ مصدر دحرج ـ وهو مقيسٌ أيضاً، صرح به جماعة، ثم أردف قائلاً: والجمهور على أنه يتوقف فيه على السماع، ما سمع منه يقال، وما لا، فلا[85].

وقد رأى «بدر الدين محمد بن مالك» في شرحه «للامية الأفعال» أن «فعللة» قياسي في الرباعي المضاعف وغيره، أما فعلال، فجاء فيه شيء من الرباعي المضاعف وغيره، ولكنه ليس بمطرد، قالوا: زلزل زلزالاً، وقلقل قلقالاً، وحوقل حيقالاً، قال الشاعر:

---

(80) «زليل» مصدر الفعل زل زليلاً إذا مر مسرعاً. انظر لسان العرب «زل» 3/ 1886 ط، دار المعارف.

(81) انظر تفسير الكشاف 3/ 3.

(82) انظر منار السالك 2/ 23، وشرح الأشموني 2/ 201 وانظر البحر المحيط 8/ 500.

(83) انظر التبيان في تصريف الأسماء ص42.

(84) انظر شرح الشافية 178.

(85) انظر تاج العروس «دحرج» 2/ 39.

يـا قـوم قـد حـوقـلـت أو دنـوتُ وشـر حـيـقـال الـرجـال الـمـوت[86]

هذا، وفتح فاء «فِعلال» اضطرب فيها قول اللغويين؛ فمنهم من يرى أنه مصدر، ومنهم من يقول أنه اسم بمعنى اسم الفاعل، ومنهم من يرى فيه الضم أيضاً، ففي البحر المحيط عند قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1] جاء قوله: وقرأ الجمهور زِلزالها بالكسر، وقرأ الجحدري وعيسى بفتحها، وقال ابن عطية: هو مصدر كالوسواس، وقال الزمخشري: المكسور مصدر والمفتوح اسم، وليس في الأبنية فعلان بالفتح إلا في المضاعف[87]، وفي تاج العروس جاء قوله: وعن نعيم بن ميسرة «زُلزَالها» بالضم، وقرأ الخليل في قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 11]، بضم الزاي في «زلزالاً»[88]، وقد بحثت عن هذه القراءة في «مختصر شواذ القرآن» لابن خالويه، وفي المحتسب، فلم أجدها.

و«زلزلة الساعة» يمكن أن يكون من إضافة المصدر إلى فاعله، والمفعول محذوف مفهوم من السياق، وهو «الأرض»، ودل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1]، ويكون ذلك من قبيل المجاز العقلي[89]، وهو: إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له للملابسة[90]، فقد أثبت الله سبحانه وتعالى لـ «الساعة» ـ القيامة ـ زلزلة وهي لا تحدث زلزلة على الحقيقة، لأن المزلزل هو الله عز وجل، ويمكن أن يكون من باب الإسناد إلى الزمان، كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: 33]، أي أن المكر يحدث في الليل والنهار[91]، وعلى ذلك تكون هناك زلزلة حقيقية، ويمكن أن تكون لفظة «الزلزلة» مستعملة استعمالاً مجازياً على جهة الاستعارة، حيث شبهت الشدة

(86) انظر شرح بدر الدين بن مالك على لامية الأفعال 47.
(87) انظر البحر المحيط 8/ 500، وتفسير الكشاف 4/ 275.
(88) انظر تاج العروس «زل» 7/ 359.
(89) انظر تفسير الكشاف 3/ 3.
(90) انظر شروح التلخيص 1/ 231، وعلم البيان ص142.
(91) انظر الكشاف 3/ 3.

والأهوال في ذلك اليوم (القيامة) بالزلزلة، مع أن في كليهما حركة واضطراباً وعدم اطمئنان، ثم استعير لفظ المشبه به «الزلزلة» للمشبه، وهو الشدة والهول، وتكون الاستعارة تصريحية أصلية، ولم يحوِ هذا التركيب الاستعاري إلا لفظ المشبه به فقط، وليس للمشبه ذكر، وليس هناك وجه شبه أو أداة تشبيه.

والجدير بالذكر أن المصدر «زلزلة» قد يكون مستعملاً استعمالاً حقيقياً أو مجازياً، وهناك مجاز آخر في التركيب في إثبات أن للساعة زلزلة، وإذا كان المجاز في الإثبات فهو عقلي[92]، ومن أمثلته في الأسلوب القرآني قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2]، فقد أثبت الحق سبحانه للأرض «إخراجاً» للأثقال، أي ما في باطنها، والعقل يقضي بأن ذلك الإثبات ليس على حقيقته؛ لأن المخرج الحقيقي هو الله، وقد يكون المجاز في الأمر المثبت، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: 9]، المجاز في جعل خضرة الأرض ونضرتها حياة، لأن اللغة هي التي تقتضي أن تكون الحياة اسماً للصفة التي هي ضد الموت، فإذا أجري اسم الحياة على خضرة الأرض ونضرتها، فقد جُعل ما ليس بحياة حياة، وهذا أمر لغوي لا دخل فيه للعقل، وقد يجتمع المجاز اللغوي والمجاز العقلي في التركيب، وذلك مثل أن تقول: «أحيتني رؤيتك» تريد: سرتني، فقد جعلت السرور حياة، وهذا الأمر المثبت مجاز من جهة اللغة؛ حيث جعل ما ليس بحياة ـ السرور ـ حياة، واشتق من الحياة أحيتني؛ بمعنى سرتني وأسعدتني، وفي إثبات أن للرؤية إحياء بمعنى إسعاداً مجاز من جهة العقل، لأن الرؤية ليس منها الإسعاد حقيقة، بل هي سبب فقط[93].

و«شيء» خبر لـ«إن» مرفوع و«زلزلة» اسمها منصوب، وعمل «إن» النصب في الاسم والرفع في الخبر هو قول «البصريين» من النحاة، لأنها تشبه الفعل من أوجه متعددة، منها:

أ ـ أنها مبنية على الفتح كما أن الفعل الماضي يبنى على الفتح.

---

(92) انظر أسرار البلاغة ص320، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص2/ 170.

(93) انظر المرجعين السابقين.

ب ـ أنها تقتضي الاسم كما أن الفعل يقتضي الاسم.

ج ـ أنها تدخلها نون الوقاية نحو: إنني كما تدخل على الفعل نحو: أعطاني.

د ـ أن فيها معنى الفعل «حققت».

فلما أشبهت الفعل من هذه الأوجه، وجب أن تعمل عمل الفعل، والفعل يكون له مرفوع ومنصوب، فكذلك «إن» ينبغي أن يكون لها مرفوع ومنصوب، ليكون المرفوع مشبَّهاً بالفاعل، والمنصوب مشبهاً بالمفعول، إلا أن المنصوب هنا ـ مع إنَّ ـ قدم على المرفوع؛ لأن «إن» لما أشبهت الفعل لفظاً ومعنى، ألزموا فيها تقديم المنصوب على المرفوع ليعلم أنها حرف مشبه الفعل وليس فعلاً، وعدم التصرف فيها لا يدل على حرفيتها، لأن هناك أفعالاً لا تتصرف مثل: نعم وبئس، وعسى، وليس، وفعل التعجب، وحبَّذا[94]، ومثل «إن» في ذلك أنَّ، لكن، كأن، ليت، لعل[95]، وقال «الكوفيون»: (إن) نصبت الاسم لأنها أشبهت الفعل، والأصل أنها لا تنصب، ولكن لمَّا تشابهت مع الفعل عملتْ النصب، وإذا كانت عملت لأنها أشبهت الفعل فهي فرع عليه، وإذا كانت فرعاً فهي أضعف منه؛ لأن الفرع أبداً يكون أضعف من الأصل؛ فينبغي ألا يعمل في الخبر، جرياً على القياس في حط الفروع على الأصول؛ لأننا لو أعملنا لأدى ذلك إلى التسوية بينهما وذلك لا يجوز، فوجب أن يبقى خبر (إنَّ) على رفعه قبل دخولها»[96].

وقد نقض «البصريون»، ما احتج به «الكوفيون» وأهم ما نقضوه هو: قول الكوفيين: عمل «إن» في الخبر يقتضي مساواتها مع الأصل، وهو الفعل، وذلك غير جائز، فقد نقضه البصريون بـ«عمل اسم الفاعل» فهو ـ اسم الفاعل ـ قد عمل لأنه أشبه الفعل، ومع ذلك له مرفوع ومنصوب كالفعل، فنقول: محمد شاكر أبوه عَمْراً، كما نقول: محمد يشكر أبوه عَمْراً[97]، كما نقض البصريون

---

(94) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف، 2/ 178، وحاشية الصبان، 1/ 191.

(95) انظر السابق نفسه.

(96) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف. 1/ 176.

(97) انظر السابق نفسه. 1/ 178.

قول الكوفيين: إن الخبر يكون باقياً على رفعه قبل دخول «إن»؛ لأن ذلك مبني على قولهم: «الخبر مرفوع بالمبتدأ، والمبتدأ مرفوع بالخبر، فهما يترافعان، ولا خلاف أن الترافع قد زال بدخول «إن»، أو إحدى أخواتها على المبتدأ، ونصبها إياه، فلو قيل: إنه مرفوع بما كان يرتفع به قبل دخولها مع زواله لكان ذلك يؤدي إلى أن يرتفع الخبر بغير عامل، وذلك محال[98]، هذا، وقد قال سيبويه: «زعم الخليل أنها - إنَّ - عملت عملين، الرفع والنصب، كما عملت «كان» الرفع والنصب حين قلت: كان أخاك زيد، إلا أنه ليس لك أن تقول: كأن أخوك عبد الله، تريد كأن عبد الله أخوك؛ لأنها لا تتصرف تصرف الأفعال، ولا يضمر فيها المرفوع كما يضمر في «كان»، فمن ثم فرقوا بينهما، كما فرقوا بين «ليس» و«ما» فلم يجروها مجراها، بَلْ قيل هي بمنزلة الأفعال فيما بعدها، وليست بأفعال»[99].

وبما سبق، يبدو أن ما نقوله: إنَّ تنصب الاسم وترفع الخبر هو الصحيح، وقد صاغ ذلك ابن مالك في ألفيته حيث قال:

لـ «إنَّ، لـيـت، لـكـنَّ، لـعـلَّ كأنَّ» عكس ما لـ «كان» من عمل

وهذا ما يجري عليه نسق الكلام العربي الفصيح، ولا داعي للاشتغال بالخلاف النحوي في هذه القضية، فليس وراءه من فائدة، حيث لم يتم التركيز في هذا الخلاف على ما يترتب عليه من دلالة في التركيب، وهذا ما يجب أن يُهْتمَّ به مع عدم الإسراف في الاشتغال بالقضايا النظرية البعيدة عن جو النص.

وفي تنكير الخبر «شيء» ما يفيد التهويل والتعظيم، أي: إنّ زلزلة الساعة لا يعرَّف كنهها إلا بأنه عظيم[100]، وذلك يفهم من السياق وجو النص، وذلك من الأمور التي يهتم بها البلاغيون ودارسو الأساليب، وفي وصف «شيء» بـ «عظيم» تصوير للأمر المعقول، وهو الشدة والهول بشيء محسوس ففي لفظ

(98) المرجع السابق 1/ 179.

(99) انظر كتاب سيبويه 2/ 131.

(100) انظر تفسير التحرير والتنوير، 17/ 187.

العظيم ضخامة، وقد فصلت جملة: إن زلزلة.... عن سابقتها «اتقوا ربكم» لأن الجملتين بينهما ما يطلق عليه البلاغيون «كمال الانقطاع»[101]، حيث إن جملة «اتقوا ربكم» جملة إنشائية، وجملة: «إن زلزلة الساعة شيء عظيم» خبرية، وإذا كان الأمر كذلك فلا عطف بالواو بين الجملتين، والاختلاف، بِكَوْن الأولى إنشائية والثانية خبرية، هنا متحقق في اللفظ والمعنى، ومثله قول الشاعر:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ويمكن أن يكون الفصل بين الجملتين راجعاً إلى ما يطلق عليه البلاغيون: شبه كمال الاتصال، وهو: أن تكون الثانية جواباً عن سؤال تثيره الجملة الأولى[102]، فكأنه قد قيل: لماذا نتقي؟ فقيل إن زلزلة الساعة شيء عظيم، وكسرت همزة «إن» لأنها في ابتداء كلام، ولعل تأكيد الجملة الخبرية: «إن زلزلة الساعة....» لإثبات تحقق هذه الزلزلة التي يكاد الناس ينكرون حدوثها.

وفي الآية القرآنية السابقة، نلحظ احتواءها على أسلوب نداء فيه توضيح وتأكيد، وبعد النداء أسلوب إنشائي حقيقي، هو الأمر باتقاء عذاب الله والخوف من عقابه، وتختتم الآية بأسلوب خبري فيه تعليل للأمر السابق، ويحمل في داخله تهديداً ووعيداً من زلزلة يوم القيامة، وقد جاء ذلك النداء ـ يأيها الناس ـ في القرآن الكريم (21) مرة، وقد أعقبه فعل أمر في ستة مواضع منها الآية السابقة، والخمسة الباقية هي قوله تعالى:

1 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21].

2 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: 186].

3 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1].

4 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: 33].

---

(101) انظر شروح التلخيص 3/ 26، وعلم المعاني لعبد العزيز عتيق، ص177، وعلم المعاني لدرويش الجندي، ص197.

(102) انظر علم المعاني لدرويش الجندي، ص198، وشروح التلخيص، 3/ 53.

5 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 3].

وفي الأسلوب القرآني جاء بعد ذلك النداء ـ يأيها الناس ـ أسلوبٌ خبري في (14) موضعاً هي قوله تعالى:

1 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: 170].

2 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: 174].

3 ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

4 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: 33].

5 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: 57].

6 ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 104][103].

7 ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: 108].

8 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: 5].

9 ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: 49].

10 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج: 73].

11 ـ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: 16].

12 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [فاطر: 5].

13 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

14 ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: 13].

وقد جاء ذلك التركيب ـ يأيها الناس ـ محذوفاً منه حرف النداء ـ يا ـ

---

(103) جملة الشرط ـ إن كنتم ـ من الجمل الخبرية، قال الشهاب القاسمي: وفي شرح التسهيل للمرادي أن الخبرية تتناول الشرطية. انظر حاشية يس على شرح التصريح 1/ 389.

ومعترضاً بين جواب الشرط وما عطف عليه في قوله:

15 ـ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: 133].

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: 2].

اختار «الزمخشري» أن يكون «يوم» منصوباً بالفعل «تذهل» والضمير في «ترونها» عائدٌ على «زلزلة»[104] وقُدِّمَ الظرف «يوماً» للاهتمام بالتوقيت بذلك اليوم، وتوقع رؤيته لكل مخاطب من الناس[105]، والجملة يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت «بيان لجملة» إن زلزلة الساعة شيء عظيم[106]، فبين الجملتين ما يسمى عند البلاغيين «كمال الاتصال»، وهو: أن يكون بين الجملتين اتحاد تام لا يسمح بوجود عاطف بينهما، بأن تكون الثانية بياناً للأولى أو تأكيداً لها، أو بدلاً منها[107] فجملة «يوم ترونها...» مُبيِّنةٌ لـ «إن زلزلة الساعة شيء عظيم»، وموضحة لها.

ويمكن أن يكون «يوم» ظرفاً لـ «عظيم» أي: عظيم يوم ترونها، وجملة «تذهل كل مرضعة» خالية من الضمير في «ترونها»[108]، ونلحظ أن هذين الوجهين الإعرابيين لا يتعارضان مع المعنى القرآني؛ فالوجه الإعرابي، هو وجه للمعنى، والتركيب هنا يتحمل ذلك، ونلحظ هنا أن معربي القرآن يكشفون في أقوالهم عما في التركيب القرآني من ترابط وعلاقات بين أجزائه أو جُمله..

والفعل المضارع «ترون» محذوف العين واللام، وأصلُه: «تَرْأَيُون» استثقل اللسان الضمة فوق الياء، فحذفت، وبقيت «الياء» ساكنة مع الواو الدالة على الفاعلية، حذفت الياء، ونقلت حركة الهمزة ـ عين الكلمة ـ إلى الراء، ثم حذفت لسكونها وسكون الواو فصار الفعل «ترون» على وزن «تفون» وقد أجمع

(104) انظر الكشاف 3/ 3، الجدول في إعراب القرآن 17/ 81.
(105) انظر تفسير التحرير والتنوير، 17/ 188.
(106) انظر التبيان في إعراب القرآن، 2/ 931، والجدول، 17/ 81.
(107) انظر علم المعاني لدرويش الجندي، ص196.
(108) انظر الجدول 17/ 81، والتبيان في إعراب القرآن 2/ 931.

لسان أهل العربية على حذف الهمزة من مضارع «رأى» مع حروف المضارعة «أنيت»[109] فيقولون: أرى، نرى، يرى، ترى، وبذلك نزل القرآن الكريم، في قوله تعالى:

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: 102].

﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55].

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [سبأ: 6].

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ [الحاقة: 7].

وخرج عن ذلك الإجماع اللساني «تيمُ الرَّباب»، فقد أبقوا الهمزة في مضارع «رأى» فيقولون: أنا أرأيُ، نحن نَرْأَيُ، هو يَرْأَيُ، أنتَ تَرْأَيُ، ذكر ذلك «ابن منظور» ثم قال عقبه: وذلك ـ بقاء الهمزة في المضارع ـ هو الأصل[110]، وقد جاء ذلك الأصل في قول الشاعر:

أُرِي عـيـنَـيَّ مـا لـم تـرأيـاه كـلانـا عـالـمٌ بـالـشـرهـاتِ[111]

ومن خلال ما سبق يظهر ما يلي:

1 ـ إيثار اللسان العربي الخفة في النطق.

2 ـ مجيء الأسلوب القرآني على ما آثرهُ لسان العرب.

3 ـ الافتراضات الصرفية قد يُدعمها ويشهد لصحتها بعض اللهجات العربية في نصوص، حيث قال الشاعر كما قالت تيم الرباب «يرأي».

4 ـ بما سبق ـ وغيره كثير ـ يظهر أن عمل الصرفي يختلف عن عمل «النحوي»، فالنحوي يهتم بما يعرضُ للمفردات والتراكيب من أحوال إعرابية، فيقول في «ترونها»: إنه مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، وواو الجماعة ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، و«ها» ضمير متصل مبني في محل

(109) انظر لسان العرب «رأى» 3/ 1538، ط دار المعارف.

(110) المرجع السابق. نفس الصفحة.

(111) المرجع السابق نفسه، وشرح الشافية 3/ 41 والمغني في تصريف الأفعال ص157.

نصب مفعول به، وجملة «ترونها» في محل جر، بإضافة الظرف - يوم - إليها، والرؤية بصريَّة، أما الصرفيُّ فيبحث في ذات المفردات، مظهراً ما يحدث فيها من تفاعل بين الحركات والحروف، وما يحدث أثناء ذلك من حذفٍ أحياناً للحركات أو الحروف، وقد يُظهر أن الحركة قد نقلت من مكانها إلى حرفٍ سابق، ليتم التخفيف، وهو في ذلك يفترض أصلاً للكلمة، وقد يدعمُ ذلك الفَرَضَ لهجةٌ عربيةٌ، وهذا يكشف أن اللغة تفاعل، ويحدث فيها تغيير في بعض الحروف لعللٍ، وقد تبقى بعض الكلمات على الأصل عند آخرين.

والفعل «تذهل» مضارع لـ «ذهَلت» - بفتح الهاء - أو ذهِلت - بكسرها[112]، تقول: ذَهَلَتْ تذْهَل، وذهِلَتْ تَذْهِلُ، لكن الراجح الفتح في الماضي والمضارع، لأن الفعل حلقي العين، أي إنّ عينه هاء وهي من حروف الحلق عند القدماء[113]، ويغلب في الأفعال حلقية العين أو اللام أن تكون من باب (فعل يَفْعَلُ)، أما كون الفعل الماضي على فَعَل مثل ذَهَل أو فَعِلَ مثل ذهِل؛ فالأمر فيه متوقف على السماع، أي ما سمع عن العرب، ويلجأ في ذلك إلى المعاجم.

والفعل «ذهل»، بكسر الهاء أو فتحها، ورد في الأسلوب القرآني بصيغة المضارع مرة واحدة، وهي التي معنا في الآية السابقة، ومصدره ذهلاً بسكون الهاء وذهولاً[114]، والذهول: ترك الشيء تناسياً عن عمد، أو يشغلك عنه شاغل، أو تتركه غافلاً عنه. هذا قول صاحب اللسان[115]، وفسر الزمخشري «الذهول» قائلاً «هو الذهاب عن الأمر مع دهشة[116]»، ونلحظ هنا أن المعنى

---

(112) انظر لسان العرب «ذهل» 3/ 1524.

(113) حروف الحلق عند القدماء هي: أ، هـ، ع، ح، غ، خ، لكن الدراسات الحديثة الصوتية أثبتت أن الهمزة والهاء يخرجان من الحنجرة، والغين والخاء من الطبق وهو سقف الحنك الرخو، والذي يخرج من الحلق هو: العين والحاء لا غير. انظر مدخل إلى علم اللغة 223.

(114) انظر لسان العرب «ذهل» 3/ 1524.

(115) انظر السابق، نفس الصفحة.

(116) انظر الكشاف، 3/ 4.

الذي ذكره صاحب اللسان قد أضاف إليه الزمخشري قوله: «مع دهشة» وهذه الإضافة قد أوحى بها السياق في النص القرآني، هذا وفسر القرطبي تذهل بقوله: أي: تشتغل، وقيل تنسى، وقيل: تلهو، وقيل تسلو[117]، وهو في ذلك لم يصرح بالدهشة كما فعل الزمخشري.

هذا، وقرىء «تَذْهَلُ كُلُّ مرضعة» ـ بفتح التاء ورفع كل ـ وواضح أن الفعل فيها مبني للمعلوم، فاعله «كل»، وقرىء «تُذْهَلُ كلُّ» ببناء الفعل للمجهول، فهو مضموم التاء مفتوح ما قبل آخره وهو «الهاء» و«كل» نائب فاعل، وعلى هذه القراءة يكون «تُذْهَلُ» مضارعاً لفعل ماضٍ ثلاثي مزيد بالهمزة «أُذْهِلَت»، وقرىء «تُذْهِلُ كلَّ» بضم تاء «تذهل» وكسر الهاء، ونصب «كل»[118]، والفاعل ضمير يعود على الزلزلة، أي: تذهل الزلزلة كلَّ مُرضعةٍ. هذا ومن خصائص الأسلوب القرآني هذه القراءات، وهي سنة متبعة، وقد اهتم بها العلماء متناً، وسنداً، وتواتراً، وشذوذاً[119]، لكن في بعض كتب التفسير ذِكْرٌ للقراءة بصيغة المبني للمجهول، ومنها «الكشاف»، حيث ذكر القراءتين الأخيرتين دون ذكر للقارىء، وقد بحثت في «شرح الشاطبية» و«السبعة لابن مجاهد» و«حجة القراءات» لأبي زُرعة، و«النشر في القراءات العشر» لابن الجزري، و«المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة» للدكتور/ سالم محيسن، و«المحتسب» لابن جني، و«مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه، فلم أعثر على هاتين القراءتين، وفي البحر المحيط (6/ 350) نصَّ على قراءة تُذهِل ـ بضم التاء وكسر الهاء ـ لأبي عبلة واليماني.

وقد أثار الزمخشري في الكشاف الفرق بين «مرضع» و«مرضعة» فقال متسائلاً: «فإن قلت لم قيل مرضعة دون مرضع؟ ثم أجاب عن تساؤله قائلاً:

---

(117) انظر الجامع لأحكام القرآن، مجلد 12/ 04.

(118) انظر تفسير الكشاف 3/ 4 ومعاني القرآن وإعرابه 3/ 409.

(119) انظر الجامع لأحكام القرآن في معنى قول النبي ﷺ: أُنزِلَ القرآن على سبعة أحرف. 1/ 41، والمغني في توجيه القراءات العشر 1/ 48.

«المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، و«المرضع» التي شأنها أن ترضع وأن تباشر الإرضاع في حال وصفها به»[120].

وقد قال «ابن هشام اللخمي» شارح الفصيح: وهذه الصفات التي تجري على المؤنث بغير هاء، إنما كان ذلك فيها لأنها أريد بها النسب، ولم تجر على الفعل، فإذا جرت على الفعل ثبتت فيها تاء التأنيث، طلقت المرأة فهي طالقة... ويقال: أرضعت فهي مرضعة. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ وتقول: عصفت الريح فهي عاصفة، قال الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: 81]. فأما قوله تعالى: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: 22] فهو محمول على النسب؛ أي ذات عصف، كما تقول: ذات طلاق، وذات حيض، وذات طهر، وذات طمث[121]، ثم رد ابن هشام على من قال: إن ترك التاء في وصف المؤنث، لأنه لا مشاركة للمذكر في هذه الأوصاف، فلم يُحتج إلى التاء الفارقة بين المذكر والمؤنث قائلاً: «وليس قول من قال في طالق وطامث وحائض إنما لم يؤنث لأنه لا مشاركة للمذكر فيه بشيء[122]، ثم علل لحكمه قائلاً: «ألا ترى أنه قد جاء ما يشترك فيه النوعان، قالوا: ناقة ضامر وجمل ضامر... وقالوا: رجل عاشق وامرأة عاشق[123].

وقد قال محمد بن الطيب الفاسي، شارح نظم ابن المرحل لفصيح ثعلب، معلقاً على قول ابن هشام اللخمي السابق: «هو كلام حسن، ينبغي اقتفاء أثره والوقوف عندما حُد من تحريره وتحقيقه، وكلام النحاة مصرح بمثله في مواضع عديدة، وأهل التصريف لم يختاروا سواه في تعاليلهم المفيدة..»[124]، وبناء على ما سبق فقولنا: امرأة مرضع وحائض دون تاء التأنيث، وإن كان وصفاً لمؤنث، مبني على أن الوصف لم يقصد به الجريان على حكم الفعل فيؤنث كما

(120) انظر الكشاف، 3/ 04.
(121) انظر شرح الفصيح لابن هشام اللخمي، ص200.
(122) انظر السابق. ص201.
(123) انظر شرح الفصيح لابن هشام اللخمي، ص201.
(124) انظر موطئة الفصيح لموطأ الفصيح، 2/ 1041.

يؤنث الفعل مع المؤنث، بل قصد بالوصف «النسب»، وهذا رأي «الخليل بن أحمد» من البصريين، ورأي «سيبويه» أن عدم تأنيث الوصف الخاص بالمؤنث محمول على المعنى، فقولنا «امرأة مرضع» محمول على أنه وصف لـ «شيء» أو «إنسان» وهو مذكر[125]. وقال الكوفيون إن ترك التاء مع الوصف الخاص بالإناث محمول على عدم اشتراك المُذكَّر فيه فيحتاج إلى التاء التي تفرق بين المذكر والمؤنث[126].

وقوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ الأصل فيه: «عن ما» حذفت النون[127]، و«ما» ـ هنا ـ يحتمل أن تكون مصدرية وتكون هي والفعل الذي بعدها في تأويل مصدر مجرور، وتقدير الكلام: عن إرضاعها، ويمكن أن تكون «ما» الموصولية فتكون الجملة التي بعدها لا محل لها من الإعراب والتقدير: عن الذي أرضعته[128].

والفعل المضارع «تضع» يقول النحاة فيه؛ إنه مرفوع، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره. والصرفي يلحظ أن هذا الفعل قد حذفت فاؤه؛ فالماضي: «وضعت»، والمضارع: «تضع» بوزن: «تعل» وسرُّ الحذف؛ أن أصل الفعل «تَوضِع» بفتح التاء وكسر الضاد،وقعت الواو بين عدوَّتيها، الفتحة والكسرة، فحذفت، وفتحت الضاد، لأن اللام من حروف الحلق[129]، وقد تكون العين حرفَ حلقٍ فتفتح أيضاً لذلك، كفعل وهب يَهَبُ، قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: 49]، وإن لم تكن العين أو اللام حرف حلق؛ فلا فتح للعين وذلك مثل: وعد يعد، وثق يثق، وقد علل البصريون لذلك السلوك التعبيري قائلين: حذفت الواو في المضارع لوقوعها بين ياء مفتوحة وكسرة، واجتماع الياء المفتوحة، والكسرة، والواو بينهما فيه ثقلٌ، فلما

---

(125) انظر شرح المفصل لابن يعيش، 5، 100، 101.

(126) السابق، نفس الصفحة، والإنصاف، 2/ 758.

(127) انظر الإملاء والترقيم في الكتابة العربية، ص71.

(128) انظر الكشاف، 3/ 04.

(129) انظر شرح الشافية 3/ 91، والمغني في تصريف الأفعال ص160، والإنصاف 2/ 784.

اجتمعت هذه الثلاثة التي توجب ثقلاً جنح اللسان جُنوحاً واجباً إلى حذف الواو طلباً للخفة[130]. ومن مجيء الأسلوب القرآني على ذلك النهج قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: 35].

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: 30].

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: 40].

هذا، وأُنث الفعل «تضع» لأن فاعله «كُلُّ» مؤنث، اكتسب التأنيث من المضاف إليه وهو «ذات» بمعنى: صاحبة، ومن ذلك في الأسلوب القرآني قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: 21].

و«كل» اسم معرفة؛ لأن فيه معنى الإضافة أضيف أم لم يُضف[131]، ولم يجيء عن العرب مقترناً بالألف واللام، وقد جوزه بعضهم، وأنكره «الأصمعي»[132] قائلاً: كلّ ـ ومثلها بعض ـ معرفة، لا تدخل عليها الألف واللام، وقد نصبت العرب منها الحال فقالوا: مررت بكل قائماً[133].

وفي لسان العرب «الحَمل» ـ بالفتح ـ ما يحمل في البطن من الأولاد في جميع الحيوان، والجمع حمال وأحمال[134] وهذا هو المقصود في النص القرآني هنا.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ في الفعل «ترى» قراءات عدة هي:

أ ـ قراءة جمهور القرّاء «تَرَى» ـ بفتح التاء ـ خطاب للمفرد.

ب ـ قراءة «زيد بن علي» تُرِي ـ بضم التاء وكسر الراء، وضمير الفاعل يعود على «الزلزلة أو الساعة»، ومن المعلوم أن المضارع «تُرِي» أصلُهُ: تُرئي، نقلت حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، ثم حذفت الهمزة، ووزنه: تُفِل، وماضيه: أرْأَيَ على مثال: أَكْرَمَ تحركت الياء ـ اللام ـ وفتح ما قبلها،

(130) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف، 2/ 783.

(131) انظر الصحاح «كلل» 4/ 1812.

(132) عبد الملك بن قريب. توفي 215هـ، انظر بغية الوعاة 2/ 113.

(133) انظر الصحاح «كلل» 5/ 1812، والمصباح المنير «بعض» ص21.

(134) انظر لسان العرب «حمل» 2/ 1002، ط دار المعارف.

فقلبت ألفاً، ثم نقلت حركة الهمزة إلى الساكن الصحيح قبلها، التقى ساكنان، العين واللام، فحذفت العين، فصار «أرى»، وعند إلحاق تاء التأنيث به يصير: أريت، تحركت الياء وفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، اجتمع ساكنان، الألف المنقلبة عن الياء، وتاء التأنيث الساكنة، فحذفت الألف، فصار الفعلُ: «أرت».

ج ـ قراءة «الزعفراني»، و«عباس» بضم التاء وفتح الراء، «وتُرَى الناسُ» والمضارع على هذه القراءة أصله: «تُرْأَيُ» وفيه من الأعمال الصرفية ما سبق في القراءة السابقة (قراءة «زيد بن علي»).

د ـ قراءة «أبي هُريرة» و«أبي زُرعة بن عمر بن جرير» و«أبي نهيك» بضم التاء، وفتح الراء، ونصب الناس «وتُرَى الناسَ سكارى» ووجه أبو حيان هذه القراءة قائلاً: «على أنه قد عدَّى الفعل «ترى» إلى ثلاثة مفاعيل، أحدها: المستكن في «تُرى»، وهو ضمير المخاطب، والثاني والثالث: «الناس سُكارى»[135] وتكون الرؤية هنا علمية أي أنَّ تُرى بمعنى: تُعلم.

هذا، وفيما سبق عند قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾، عرفنا أن الفكر اللغوي الصرفي يقول فيه إن أصله: أوْتَقُوا، ومضارعه «يتَّقي» أصله: يَوْتَقي، وماضيه «اتقى» أصله: اوْتقى، واسم الفاعل «مُتَّقي» أصله: مُوْتَقي، واسم المعفول «مُتَّقَى» أصله: مُوْتَقى، والمصدر «اتقاء» أصله: اوْتقاء، وقد حدث في كل ذلك قلبُ الواو تاء، ثم إدغامها في التاء التي بعدها، وعند قوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ عرفنا ما للصرفيين فيه من تحليل، وكذلك الفعل «ترى» بقراءاته، وعرفنا أن الفعل «تضع» يرى الصرفيون أن أصله: تَوضِع، وكان القياسُ أن يُقال «تَضِع» مثل: تعِدُ لكن فتحت الضاد من أجل العين وهي من حروف الحلق.

وتقول هنا: إن قول الصرفيين: الأصل كذا ليس معناه أن هذا الأصل كان مستعملاً زمناً ما، ثم هجر ذلك الأصل، واستعمل اللفظ على صورته الأخيرة، بل معناه: أن هذا اللفظ لو لم يحدث فيه تلك التغييرات التي افترضها الصرفيون

(135) انظر البحر المحيط، 6/ 360.

لجاء على ذلك الأصل، وقد أشار إلى ذلك ابن جني[136] حيث قال ما معناه: إن القول بالأصل يوهم أن هذه الألفاظ قد كان مرة يقال، حتى إنهم كانوا يقولون في موضع: قام زيد؛ قوم زيد، وفي باع؛ بيع، وفي طال؛ طوُل، وفي خاف؛ خوِف، وليس الأمر كذلك، بل بضده، وذلك أنه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ما تراه وتسمعه أما اعتقاد أن هذا الأصل كان مستعملاً وقتاً من الأزمان ثم انصرف عنه إلى هذا اللفظ فخطأ لا يعتقده أحد من أهل النظر[137]، ومعنى ذلك: أنه لا ينبغي أن يفهم من قول الصرفيين أن أصل «اتقى» ـ مثلاً ـ أوتقى، أن ذلك الأصل كان مستعملاً، ثم انصرف عنه إلى «اتقى»، بل إن اللسان العربي لم ينطق ذلك الأصل الذي افتُرِض، وكذلك قولهم: إن أصل «أرى»: أرأى على مثال: أكرم، لا يصح أن يفهم منه أن «أرأى» استعمل، ثم انصرف عنه إلى «أرى» بل لم يكن قط في اللسان العربي إلا على ما تراه وتسمعه، وهو «أرى». ومن أدل الدلائل على أن هذه الأشياء التي يدعي أنها أصول مرفوضة، لا يعتقد أنها قد كانت مرة مستعملة، ثم صارت من بعد مهملة، ما تعرضه الصناعة ـ أي صنعة الصرفيين ـ فيها من تقدير ما لا يمكن النطق به لتعذره، وذلك مثل قولهم في: «يرى» الأصل «يرأى»، تحركت الياء ـ في ترأى ـ وفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فصار الفعل: يرأى (ترسم الألف الأخيرة ياء) ثم نقلت حركة الهمزة إلى الراء، فاجتمع ألفان (يراا) فالتقى ساكنان، فالألفان الساكنان لا يمكن النطق بهما أبداً[138]، هذا معناه أن الأصول المفترضة لم تكن جارية على الألسنة ثم انصرف عنها إلى ما آل إليه حال اللفظ أخيراً، ولكن أهل الصناعة ـ الصرفيين ـ تصوروا في هذه الألفاظ وما كان على شاكلتها، تلك التصورات التي قاموا بها، وأرشدهم إلى صدق تصوراتهم مجيء بعض الألفاظ على حسب تلك التصورات، فقولهم: الأصل في «يرى» «يرأى نبَّههم على صدق هذا التصور قول الشاعر السابق:

---

(136) الخصائص، 1/ 257.

(137) السابق نفسه.

(138) الخصائص، 1/ 357.

أُرِى عـيـنَـيَّ مـالـم تَـرأَيـاه كـلانـا عـالـم بـالـتُّـرهـات

فقد قال الشاعر: «ترأياه» وقد أشار إلى ذلك ابن جني حيث قال: فرب حرفٍ يخرج هكذا ـ أي على حسب قولهم ـ مَنْبهةً على أصل بابه[139]، ومن بعض ما جاء منبهاً على الأصل الذي افترضه الصرفيون قول الشاعر:

صددتِ فأطولتِ الصدودَ وقلَّما وصالٌ على طول الصدودِ يَدومُ[140]

فقوله: «أطولت» دالٌ على أن أصل: أقام أقوَمَ، نقلت حركة الواو إلى الساكن الصحيح قبلها، فقلبت ألفاً فصار الفعل أقام، بوزن «أفعل» على أصله.

هذا، وقد ضاق ذرعاً بعض المعاصرين من هذه الافتراضات الصرفية، ويرَوْنَ أن تصريف الكلمات على النحو الذي رسمه القدماء عملٌ لا ضرورة إليه، ولا نفع منه، لأن العرب إنما تكلمت بهذه الكلمات على الصورة التي تستعمل عليها، فمن أين للصرفيين بتصريفها والتغييرات التي تدخلها[141]؟! وبدأ يظهر ما يُسمَّى بالدراسات الصرفية الوصفية، وفيها نقدٌ لهذه الافتراضات التي يزعمها الصرفيون[142]، كأنهم فيما صنعوا يفترون على العرب الكذب ويتقولون عليها الأقاويل[143].

ونقول هنا: إن مثل من يدعو إلى الكف عن تصريف الكلمات، لأن العربي تكلم بها هكذا كمثل من يدعو إلى الكف عن النظر في الكون وكشف أسراره، لأن الله خلقه هكذا.... ثم إن إلقاء الكلمات إلى الناس، وفرضها عليهم جامدة راسخة يُعدُّ ضرباً من الحجر العلمي الذي لا يتفق مع كرامة الإنسان العقلية، ومع حريته الفكرية[144]، وقد قدم لنا الصرفيون ما رأوه،

---

(139) السابق نفسه.

(140) انظر الخصائص 1/ 257.

(141) انظر من قضايا اللغة والنحو، ص103.

(142) انظر علم الصرف دراسة وصفية، للدكتور/ محمد أبو الفتوح الشريف.

(143) انظر من قضايا اللغة والنحو، ص103.

(144) السابق. نفس الصفحة.

وصدق افتراضهم بعض ما نطق به العرب على الأصل الذي افترضوه، ومن أراد غضَّ الطرف عن عملهم فيلقدم لنا تفسيراً أفضل، ولا يقنع بقوله إن العربي نطق هكذا ثم يسكت!!

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ قراءات عدة في لفظ «سكارى» نعرضها فيما يلي:

1 ـ قراءة جمهور القُرَّاء «سُكارى» بضم السين، وألف بعد الكاف في الموضعين، على وزن «فُعالى»[145]، «وسُكارى» جمع تكسير مُفرده «سكران»، ومثله «كُسالى» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: 142].

2 ـ قراءة حمزة والكسائي وخلف «سَكرَى» بفتح السين، وسكون الكاف، في الموضعين على وزن «فَعْلَى»[146]، وهو ـ سكرى ـ جمع تكسير، مفرده: سَكِرٌ، مثلُ: زَمِنٌ ـ مُبتلى ـ وزَمْنَى، قال ابن جني في المحتسب[147]: و«فعلى» في التكسير مما يختص به المبتَلَون، فالسُكْرُ عِلةٌ تلحق العقول.

3 ـ قراءة أبي هريرة، وأبي نهيك، وعيسى بفتح السين فيهما وألف بعد الكاف «سَكارى» بوزن «فَعالى»[148]، و«سكارى» جمع تكسير، واحده سَكران، وفي «البحر المحيط» جاء قوله: وقال أبو حاتم هي لغة تميم[149]، وجاء في تاج العروس[150] عن هذه القراءة قوله: لم يقرأ أحدٌ «سَكارى» بالفتح، وهي لغة، ولا يجوز القراءة بها، لأن القراءة سُنة مُتَّبعة، وفي المحتسب لابن جني[151] أن «سَكارى» ـ بفتح السين وألف بعد الكاف ـ جمع تكسير

---

(145) انظر البحر المحيط 6/ 350، النشر 312، كتاب السبعة ص434، وحجة القراءات ص472.

(146) المراجع السابقة نفسها.

(147) انظر المحتسب 2/ 72.

(148) انظر البحر المحيط 6، 350، والمحتسب 2/ 72، التبيان للعكبري 2/ 931، مختصر شواذ القرآن ص94.

(149) انظر البحر المحيط 6/ 350.

(150) انظر تاج العروس «سكر» 3/ 373، ومثله اللسان «سكر» 3/ 2047.

(151) انظر المحتسب 2/ 72، 73.

أصلُه: «سَكارين» على وزن فعالين، ثُمَّ تَغيَّر إلى «سَكارى» ويَدُلُّ على أنه قد كان في الأصل «سَكارين» «غرائين» في قول الشاعر:

إن يهبط الضبُّ أرضَ النون ينصرهُ يهلك ويعل عليه الماءُ والطينُ

أو يهبط النون أرض الضب ينصُرُه يهلك ويأكله قومٌ غرائين

و«غرائين» تكسيرٌ لـ «غرثان» وهو الجائع، ومؤنثه «غَرثى»، ويفترض ابنُ جني في «سكارين» أنهم ـ العرب ـ حوَّلوا النون إلى ياء، فصار سَكارِيّ، ثُمَّ حذفوا إحدى الياءين، فصار سكارِي، ثم أبدلوا الكسرة فتحة، وأبدلوا من الياء ألفاً، فصار «سَكارَى»[152].

4 ـ قراءة الحسن والأعرج وأبو زُرعة وابن جُبير والأعمش، «سُكْرى» بضم السين وسكون الكاف منهما[153]، وقال الزمخشري عن هذه القراءة إنها غريبة، وقال أبو الفضل الرازي: فُعلى بضم الفاء من صفة الواحدة من الإناث، لكنها لما جعلت من صفات الناس وهم جماعة أجريت الجماعة بمنزلة المؤنث الواحد[154].

5 ـ قراءة أبي زُرْعة «سَكْرَى» ـ بفتح السين وسكون الكاف ـ بـ«سُكرى» ـ بضم السين وسكون الكاف.

6 ـ وعن ابن جبير «سَكْرى» ـ بفتح السين وسكون الكاف ـ بـ «سُكَارَى» ـ بضم السين وفتح الكاف ـ.

7 ـ وعن الحسن أيضاً «سُكَارَى» ـ بضم السين وفتح الكاف ـ بـ «سَكْرى» ـ بفتح السين وسكون الكاف ـ.

وقد أثبت أبو حيان القراءات السابقة كلها[155]، وذكر غيره بعضها، وقد

(152) انظر المحتسب 2/ 72.

(153) انظر البحر المحيط 6/ 350، والكشاف 3/ 4.

(154) المرجعان السابقان. نفس الصفحة.

(155) السابق. نفس الصفحة.

ثبت أن «سَكَارى» ـ بفتح السين والكاف بعدها ألف ـ قراءة، وأن بعض اللغويين قال: إنها لغة وليست بقراءة، ما يدعونا إلى المزيد من توثيق القراءات مع التفريق بين ما هو جائزٌ لغةً، وبين ما هو قراءة قرآنية، وقد تتفق اللغة مع القراءة.

وفي الآية الكريمة تشبيه محذوف الأداة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ وكذلك حذف منه وجه الشبه، ومن المعلوم أن التشبيه هو علاقة موازنة يجمع بين طرفين لاشتراكهما في صفة أو أكثر[156]، دون ما قصدٍ إلى أن الطرف الأول ـ المشبه ـ أصبح الطرف الثاني ـ المشبه به ـ فالتشبيه قائم في الكلام العربي على مبدأ المغايرة أي أن المشبه ليس هو المشبه به، بل بينهما اشتراك في صفةٍ أو أكثر مع احتفاظ كل منهما بذاته وكيانه، وهذا المعنى ذكره الجاحظ قائلاً[157]: «وقد يشبِّه الشعراء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس، والغيث، والبحر، وبالأسد، وبالسيف، وبالحية، والنجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حد الإنسان، وإذا ذموا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القرد والحمار، وهو الثور، وهو التيس، وهو الذيب، وهو العقرب، ثم لا يُدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم، ولا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء»، وذلك ما قام عليه التشبيه في الآية الكريمة فـ«الناس سكارى» على سبيل المجاز حيث ضاع رشدهم، وفقدوا عقولهم، وليس هناك مُسكِر حقيقي، بل هناك شدة، وهول من جرَّائها دُهشوا وصاروا كالسكارى، ولذلك جاء عقب هذا التشبيه قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ أي حقيقةً، وذلك مثلُ أن نقول: فلانٌ حمارٌ وليس بحمار، أي إنه مُشابه للحمار مجازاً فهو بليد غبي وليس بحمار حقيقةً، وعلماؤنا يقولون: إن من أدلة المجاز صدق نقيضه أي هُم سكارى مجازاً وليسوا بسكارى حقيقة[158]، ومثل هذا التركيب القرآني ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ يُطلِق عليه عبد القاهر الجرجاني التشبيه، فهو

(156) انظر جواهر البلاغة 200، والعمدة لابن رشيق 286.

(157) انظر الحيوان 1/ 211.

(158) انظر الإنصاف لأحمد بن المنير في حاشية تفسير الكشاف 3/ 4.

يقول: لا تُطلق الاستعارة على نحو قولنا: زيدٌ أسدٌ وهندٌ بدرٌ، ولكن نقول: هو تشبيهٌ[159].

هذا ويطلق البلاغيون على التشبيه الذي حذف منه الوجه والأداة «التشبيه البليغ» ويجعلونه أعلى مقاماً في البلاغة ممَّا ذكر فيه الوجه والأداة، ومن أمثلته قول أبي فراس مخاطباً سيف الدولة:

إذا صحَّ منك الود فالكُلّ هيّن وكلُّ الذي فوق التراب ترابُ[160]

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ «الواو» هي واو الحال، ويُطلق عليها «واو الابتداء»، وهي ليست عاطفة، ولا أصلها العطف[161]، أي إنها نوعٌ مستقل من أنواع الواو في كلام العرب، وجملة الحال «هم بسُكارى» اسمية منفية بـ «ما» العاملة عمل «ليس» وهي «ما الحجازية وهذه الجملة الحالية مرتبطة بواو الحال، والضمير «هم» العائد على صاحب الحال ـ الناس ـ واجتماعهما ـ الواو والضمير ـ في الجملة الاسمية أكثر من الاقتصار على الضمير، وذهب الفراء والزمخشري إلى أنه لا يجوز انفراد الضمير في الاسمية إلا ندوراً شاذاً، بل لا بُدَّ منه ومن الواو معاً[162].

هذا، وقد جاءت الواو رابطة في جملة الحال دون أن يكون معها الضمير في مواضع في الأسلوب القرآني، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: 27] جملة «والبحر» ـ برفع البحر ـ حالية، والوا هي واو الحال، وهي الرابط فقط[163]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171]، جملة «كأنه ظلة» حالية، والرابط فيها الضمير فقط[164].

---

(159) انظر أسرار البلاغة ص279.

(160) انظر البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البيان) 45.

(161) انظر همع الهوامع 4/ 50.

(162) انظر همع الهوامع 4/ 47.

(163) انظر الحال في الأسلوب القرآني ص151.

(164) السابق ص171.

هذا ونلحظ أن جملة الحال «وما هم بسكارى» جملةٌ خبرية، خالية من دليل استقبال أو تعجب، فهي مستوفية جميع الأوصاف ـ الشروط ـ التي ذكرها نُحاة العربية[165].

والباء في «بسكارى» زائدةٌ في خبر «ما» ـ على أنها حجازية ـ وهذه الزيادة شائعة في الأسلوب القرآني، من شواهدها قوله تعالى:

ـ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 74].

ـ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

ـ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: 29].

وقد نص النحويون على أن زيادتها في خبر «ما» كثيرة[166]، وقال ابن هشام: إن زيادتها في الخبر المنفي مقيس[167]، وقد أفادت زيادة الباء في الخبر «بسكارى» تأكيد نفي سكر الناس حقيقةً[168]، وهذا يظهر أن النحاة قد اهتموا بالحرف، وكشفوا النقاب عن وظيفته في التركيب لبيان المعنى المقصود.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾:

رأى صاحب كتاب «الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه «أن هذه الواو قبل «لكن» عاطفةٌ على استئناف مقدرٍ أي: هذه ـ الإشارة إلى ذهول كل مرضعة عما أرضعت ووضع كل ذات حمل حملها، ورؤية الناس سكارى وما هم بسكارى ـ أحوال هينة ولكنَّ عذاب الله شديد[169]، وقال في البحر المحيط: وجاء هذا الاستدارك بالإخبار عن عذاب الله بأنْ شديدٌ، لما تقدم ما هو بالنسبة للعذاب كالحالة الهينة اللينة، وهو الذهول، والوضع، ورؤية الناس أشباه

(165) انظر همع الهوامع 4/ 47.

(166) انظر شرح ابن عقيل 1/ 309.

(167) انظر مغني اللبيب 1/ 149.

(168) انظر الإنصاف لأحمد بن المنير في حاشية تفسير الكشاف 3/ 4، والأنصاف في مسائل الخلاف 1/ 167.

(169) انظر الجدول 17/ 82.

سكارى، وكأنه قيل: وهذه أحوال هينة ولكن عذاب الله شديد وليس بهين؛ لأن لكنَّ لا بُدَّ أن تقع بين مُتنافيين بوجه ما[170].

وهنا نلحظ أن مُعربي القرآن يُقدِّرون شيئاً ثم يحكمون بالعطف على ذلك المقدَّر، وعلى الرغم من أن ذلك التقدير من وحي معنى ما تقدَّم، إلا أنَّني أميلُ إلى اعتبار «الواو» مستأنفة، وليست عاطفة على مُستأنف مُقدَّر، وجملة «لكن عذاب الله شديدٌ» استئنافية مسبوقة بواو الاستئناف، وهي من الجمل التي لا محل لها من الإعراب، ولكنها مرتبطة بما قبلها ارتباطاً معنوياً.

هذا، وقد اشتغل الفكر النحوي بالبحث في «لكن»: هل هي بسيطة أو مركبة من «لا»، «إن» وزيدت عليها الكاف، أو هي بسيطة أو مركبة من: لكن أن، فطرحت الهمزة للتخفيف، ونون لكن لالتقاء الساكنين[171]، وأرى أن البحث في ذلك لا يُجدي نفعاً، وكان الأجدر أن تُبحث «لكنَّ» في تركيب الكلام، وقد قال الرضي في شرح الكافية معلقاً على قول من قال إنها مركبة: ولا يخفى أثر التكلف فيما قالوا، وهو نوع من علم الغيب[172]، وهي في التركيب القرآني السابق مفيدة للاستدارك، بمعنى: أنها رفعت توهُّم ما يمكن أن يُظنَّ من أنَّ أحوال الناس في هذا اليوم هينة لينة، وأثبتت حُكماً مخالفاً لذلك، وهو شدة عذاب الله، ويصحب الاستدراك ـ فيما أظن ـ توكيدٌ، حيث إن هذه الشدة بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ مفهومة ضمناً من قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، وفيما سبق كان اسم «لكنَّ» اسماً ظاهراً وهو «عذاب»، وقد لحظ علماء العربية أن اسمها قد يكون محذوفاً، وقد فرض حذفه ما جاء بعد لكنَّ مما لا يمكن أن يكون معمولاً لها، وذلك مثل قول أمية بن أبي الصلت:

ولكنَّ من لا يلق أمراً ينوبُهُ ... بِعُدَّته ينزل وهو أعزلُ

(170) انظر البحر المحيط 6/ 351.

(171) انظر شرح الأشموني 2/ 191.

(172) انظر شرح الرضي 4/ 372.

حيث أُضمر اسم «لكنَّ» لأن ما بعدها «مَنْ» الشرطية، والشرط لا يعملُ فيه ما قبله»[173]، وقال سيبويه «إنما جازى حيث أضمر الهاء، أراد ولكنه[174]، ومثلُ لكنَّ في ذلك «إنَّ» في قول الأعشى:

إن من لام في بني بنت حسا ن ألُمْهُ وأعصه في الخطوب

فتقدير الكلام: إنه[175]، لأن «مَنْ» شرطية، ولا يعمل فيها ما قبلها.

وبعد البحث في الأسلوب القرآني تبيَّن أنَّ «لكنَّ» عند تخفيفها ـ عدم تشديد النون ـ يبطل عملها وتصير حرف ابتداء ويتضح ذلك من قوله تعالى:

1 ـ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: 17]. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر بتخفيف «لكنَّ» ورفع ما بعدها في الموضعين، وقرأ الباقون بالتشديد، ونصب لفظ الجلالة[176].

2 ـ ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: 102]. قرأ ابن كثير وأبو عمر وعاصم ونافع: ولكن الشياطين كفروا «بتشديد نون» لكنَّ ونصب «الشياطين» وقرأ ابن عامر «ولكنْ الشياطينُ» بتخفيف نون «لكن» ورفع «الشياطين»[177].

وقال يونس والأخفش: إنَّ «لكنَّ» إذا خففت يجوز أن تعمل، وقد حاولتُ أن أجد لذلك شاهداً فلم أعثر، وقال الرضي[178]، «ولا أعرف به شاهداً»، ونستطيع أن نقول هنا: إن الأسلوب القرآني بقراءاته يدعم ما قاله النحاة بصدد «لكنَّ»، فقد قالوا: إذا خُفِّفت يبطُل عملها، وصدَّقت القراءات القرآنية ذلك، وَبتتبع الأسلوب القرآني يُرفَضُ قول «يونس والأخفش» اللذين أجازا العمل وهي مخففة، حيث لم نجد شاهداً يدعم ذلك، وخُرِّجَ ما نُصب

---

(173) انظر مغني اللبيب ص384.

(174) انظر كتاب سيبويه 3/ 73 تحقيق هارون.

(175) انظر السابق ومعه الإنصاف في مسائل الخلاف 1/ 80.

(176) انظر حجة القراءات لأبي زرعة ص309، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج 2/ 406.

(177) انظر كتاب السبعة في القراءات ص168، ومعاني القرآن وإعرابه 1/ 183.

(178) انظر شرح الرضي على كافية ابن الحاجب 4/ 372.

بعد المخففة على أنه منصوبٌ بـ «كان» المقدرة، ففي قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40]، قال الزجاج: «من نصب «رسولَ» و «خاتم» فالمعنى: ولكن كان رسول الله وكان خاتم النبيين، ومن رفع فالمعنى: ولكن هو رسول الله ولكن هو خاتم النبيين[179]، وفي لسان العرب جاء قوله: وفي قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: 40] نُصب «رسول» لأنه خبرٌ لـ «كان» المقدرة أي ولكن كان رسولَ الله[180].

وقد كشف «الزمخشري» عن سر التعبير القرآني بـ «ترون» في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾، والتعبير بـ «ترى» في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾، فقال فإن قلت: لم قيل أولاً «ترون» ثم قيل «ترى» على الإفراد؟ قلت: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجُعل الناس جميعاً رائين لها، وهي معلقة أخيراً بكون الناس سكارى أي على حال السكر، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم[181].

الخاتمة

هذا، وفيما سبق أظهرت الدراسة ما يلي:

1 ـ أن علماء العربية يُدركون وظيفة اللفظة في التركيب، كما يدركون أيضاً ما ينطوي عليه التركيب من دلالات، وهذا الإدراك لدى العربي قديم، يقول ابن جني: «حضرني قديماً بالموصل أعرابي عقيلي جوني تميمي، يقال له محمد بن العساف الشجري، وقلما رأيت بدوياً أفصح منه، فقلت له يوماً شغفاً بفصاحته والتذاذاً بمطاولته، وجرياً على العادة معه في إيقاظ طبعه واقتداح زند فطنته: كيف تقول: أكرم أخوك أباك؟ فقال: كذلك، ـ أي أقول: أكرم أخوك أباك. فقلت له: فكيف تقول: أكرمني أبوك؟ فقال: كذلك، فقلت له: أفتقول: أكرم أخوك أباك؟ فقال: لا أقول أبوك أبداً ـ أي في التركيب الأخير، فقلت له:

(179) انظر معاني القرآن وإعرابه 4/ 230.

(180) انظر لسان العرب «الكن» 5/ 4070.

(181) انظر الكشاف 3/ 5.

فكيف تقول: أكرمني أبوك؟ فقال: كذلك، قلت: ألست تزعم أنك لا تقول: أبوك أبداً؟ فقال: «ايش» اختلفت جهتا الكلام، ثم يعلق ابن جني قائلاً: فهل قوله: اختلفت جهتا الكلام إلا كقولنا نحن: هو فاعل، وكان في الأول مفعولاً. فانظر إلى قيام معاني هذا الأمر في أنفسهم، وإن لم تقطع به عبارتهم[182]، وقد ذكر ابن جني ذلك أيضاً في كتابه «الخصائص»، ثم قال معلقاً: «فهل هذا إلا أدل شيء على تأملهم مواقع الكلام، وإعطائهم إياه في كل موضع حقه، وحصته من الإعراب، عن ميزة وبصيرة، وأنه ليس استرسالاً ولا ترجيحاً[183].

«وقد احتفظت العربية الفصحى في ظاهرة التصرف الإعرابي بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية ـ باستثناء البابلية القديمة ـ قبل عصر نموها وازدهارها الأدبي، وقد احتدم حول غاية بقاء هذا التصرف الإعرابي في لغة التخاطب الحي، فأشعار عرب البادية ـ قبل الإسلام وفي عصوره ـ ترينا علامات الإعراب مطردة كاملة السلطان، كما أن الحقيقة الثابتة المتمثلة في أن النحويين العرب كانوا ـ حتى القرن الرابع الهجري ـ يختلفون إلى عرب البادية ليدرسوا لغتهم تدل على أن التصرف الإعرابي كان في أوج ازدهاره آنذاك»[184].

وقد حافظ القرآن الكريم على التصرف الإعرابي للغة العربية وحين اختلط العرب بغيرهم، وفسدت الألسنة عن سنن اللسان العربي، ففكر المخلصون من أبناء الأمة في وضع ما يحفظ على العرب لغتهم «جاء رجل إلى زياد بن أبيه فقال له: صلح الله الأمير، «توفي أبانا وترك بنون». فقال زياد متعجباً: توفي أبانا وترك بنون! ادعوا لي أبا الأسود الدؤلي، فلما جاءه قال له: اصنع ما كنت نهيتك عنه ـ فيما سبق ـ ففعل، أي وضع علم النحو[185].

2 ـ تُظهر كُتب الإعراب للأسلوب القرآني خلافاً حول إعراب بعض

---

(182) انظر معجم الأدباء 12/ 105 ترجمة ابن جني.

(183) انظر الخصائص، 1/ 76.

(184) انظر العربية دارسات في اللغة واللهجات والأساليب ليوهان فك، ص15.

(185) انظر العربية دارسات في اللغة واللهجات والأساليب ليوهان فك، ص15.

ألفاظه أو جمله، وهذا الخلاف مُهم، حيثُ إنَّه يظهر فكر علمائنا حول توظيف المفردات أو الجمل في الأسلوب القرآني، وذلك مثلُ خلافهم حول «الرفع» في لفظ «الناس» في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وكذلك خلافهم حول جواز النصب مع الرفع في نفس اللفظ «الناس»، وتبقى حرية الرأي حول اختيار رأي من هذه الآراء، أو ابتكار قول آخر غير مسبوق، وهذا ما يجب أن يكون حتى لا يقف البحث عند ما قدَّمه السابقون.

3 ـ كان النحويون يلاحظون الفروق بين التراكيب، فما يجوز من وجه إعرابي في لفظ داخل تركيب، لا يجوز أن يطلق على لفظ آخر في تركيب مشابه، فـ«الظريف» في قولنا: يا محمد الظريف يجوز فيه الرفع مراعاةً للفظ المنادَى (محمد) ويجوز فيه النصب مراعاة لمحله، أما «الناس» في «يأيها الناس» فلا يجوز فيه إلا الرفع؛ لأنه لا يجوز أن يُستغنى عنه، بخلاف «الظريف» فيمكن الاستغناء عنه.

4 ـ قول «الصبان» بنصب «الكافرون» في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: 1] على أنها قراءة نقلاً عن «ابن الباذش» لعله أوردها في كتابه (الإقناع)، وقد ذكر ابن الجزري في ترجمته أن به أوهاماً ردها عليه في كتاب (الأعلام).

5 ـ الباحث في متن اللغة، يقول أحياناً في بعض الألفاظ إن أصلها كذا معتمداً على ورود ذلك الأصل في بعض النصوص، وملاحظاً ما حدث فيها حينما ابتعدت عن ذلك الأصل، وذلك مثل ما حدث في لفظ «الناس» من أن أصله «الأناس»، وما حدث من اختلاف حول أصل مادته اللغوية.

6 ـ في كلام العرب يحدث إبدال حرفٍ مكان حرفٍ أحياناً، وقد أُلِّف في ذلك كُتُبٌ، ولهذا الإبدال مُسَوِّغاتٌ صوتية حيناً، وذلك مثل إبدال السين في «الناس» تاءً فيقال: النَّات، ولذلك الإبدال شواهدُ من كلام العرب الفصحاء، وقد وقع ذلك الإبدال في بعض ألفاظ القرآن الكريم فيما قرىء به شذوذاً.

7 ـ نداء ما فيه «أل» يتم التوصل إليه بلفظ «أيُّ» إنْ كان مذكراً أو «أيَّة» إن كان مؤنثاً، وهذا ما جاء في الأسلوب القرآني، وقد ذكر النحويون حالاتٍ قليلة

يجوز فيها نداء ما فيه «أل» مباشرة، وكان لهم تأويلٌ غير مفسدٍ لبعض النُّصوص التي باشر فيها حرف النداء «يا» ما فيه الألف واللام.

8 ـ للصرفيين في بعض الألفاظ العربية ومنها ألفاظ القرآن الكريم أعمالٌ، وذلك مثل افتراضهم أنَّ أصل فعل الأمر «اتقوا» اوْتقيوا، وكذلك افتراضهم أن أصل الفعل «تضع» توضِع، وأن أصل الفعل المضارع «ترى» ترأى، وقد كانت لبعض هذه الافتراضات ما يُصدِّقُها مما شذَّ، أو ما سمَّاه ابن جني مُنبِّهاً على الأصل، وقد ضاق بعضُ المحدثين ذرعاً من هذه الافتراضات، ولكن الحقَّ مع الصرفيين فيما فعلوا من تحليلات، وليت من يعترض على ذلك يُقدم مقترحاً مقبولاً، ولكن هيهات، إنَّهم يقولون: هكذا نطق العربي ثم يسكتون!!!

9 ـ في الأسلوب القرآني يُقدِّر الدارسون له أشياء محذوفة، وذلك مثل تقديرهم حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾، ولحذف المضاف ضوابط في العربية إن توفرت القرائن والدلائل على ذلك المحذوف، جاز لنا أن نقيس عليه دون أخذٍ برأي من يرى عدم القياس على ذلك الحذف، وهو أبو الحسن الأخفش.

10 ـ أظهرت الدراسة أن بعض ألفاظ القرآن الكريم قد يكون مستعملاً استعمالاً حقيقياً، ويمكن أن يكون مستعملاً استعمالاً مجازياً، وذلك مثل لفظ «زلزلة»، فيحتمل أن تكون هناك يوم القيامة زلزلة حقيقية، ويمكن أن يكون اللفظ مستعاراً للشدة والهول الذي يكون في ذلك اليوم.

11 ـ بينت الدراسة أن الأسلوب القرآني فيه استعمال للمجاز العقلي، واستعمال للمجاز اللغوي، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾، ففي ذلك مجاز عقليٌّ، وفي «زلزلة» مجاز لغوي.

12 ـ أظهرت الدراسة أن الوقوف عند دلالات التفكير في الأسلوب القرآني أمر قد اهتم به البلاغيون، ولم يعطه النحوي القدر اللازم له، وذلك مثل الوقوف عند دلالة تنكير «شيء عظيم».

13 ـ كشفت الدراسة عن سر الفصل بين جملة النداء «يأيها الناس»، وبين جملة «اتقوا ربكم» وكذلك كشفت عن سر الفصل بين جملة «أتقوا ربكم» وبين

جملة «إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم»، وبينت أن ذلك من الأمور التي عُني بها البلاغيون عناية فائقة.

14 ـ كان في هذه الدراسة وقوفٌ عند الخلاف النحوي بين الكوفيين والبصريين حول عمل «إنَّ» في رفع خبرها، وبينت أن الاشتغال بذلك أمرٌ لا طائل وراءه.

15 ـ في الدراسة تمَّ إحصاء ما جاء في الأسلوب القرآني من «أسلوب النداء بلفظ يأيُّها الناس» وما جاء عقبه من أُسلوبٍ إنشائي أو خبري.

16 ـ في بعض الكتب المهتمة بدراسة الأسلوب القرآني قراءات تُذْكرُ بصيغة المبني للمجهول، ولها توجيه لغوي، ولكن بالبحث عنها لم نجدها في كتب القراءات، وذلك مثل قراءة «تُذهَل» بالبناء للمجهول، و«تُذهِل» بضم التاء وكسر الهاء، فلم أجدها في كتب أثبتها في ثنايا البحث، وقد وجدت الثانية في البحر المحيط، وذلك ما يدعونا للبحث في توثيق هذه القراءات التي تُذكر بصيغة المبني للمجهول.

17 ـ وقفت الدراسة عند ظاهرة الصفات التي تجري على المؤنث بغير علامةٍ للتأنيث، وأظهرت آراء العلماء في توجيه هذه الظاهرة.

18 ـ ظهر من الدراسة أن «ما» في قوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ يمكن أن تكون مصدرية، ويمكن أن تكون موصولية، والمعنى القرآني يحتمل الرأيين دون تعسُّفٍ.

19 ـ تم الوقوف في هذه الدراسة عند القراءات في لفظ «سكارى»، وبينتُ ما فيه من قراءات، ورددتُ قول من يقول: إن «سَكارى» بفتح السين والكاف بعدها ألف ليست قراءة بل هي لغة.

20 ـ وقفتُ أثناء دراسة النص القرآني عند التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ وبيَّنتُ أنَّ أسلوب التشبيه يختلف في تكوينه عن أسلوب الاستعارة، ولكلٍّ موضعه في الأسلوب القرآني.

21 ـ أظهرت الدراسة أن جملة الحال، في النص القرآني محل الدراسة،

اسمية مرتبطة بالواو والضمير، وفي آيات أُخرى قد ارتبطت بالواو فقط، وارتبطت أحياناً بالضمير فقط، ودفعت الدراسة بذلك قول بعض النحويين خلاف ذلك.

22 ـ تبيّن من الدراسة أنّ زيادة الباء في «بسكارى» له دلالة، ثم بيّنتُ أنّ زيادة الباء في خبر «ما» شائع مقيس في الأسلوب القرآنيّ.

23 ـ ظهر بالوقوف عند قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ أن الفكر النحوي قد اشتغل بالبحث في «لكن»: هل هي بسيطة أو مركبة، وبينتُ أن الاشتغال بذلك تكلفٌ يجب أن تبتعد عنه الدراسة النحوية، وتتجه لدراسة الأداة «لكن» ودلالاتها داخل التراكيب، كما كشفتُ عن أن «لكنَّ» إذا خُفِّفت ـ لم تشدد النون ـ لا تعمل النصب فيما بعدها، ورددتُ قول من يقول من النحاة إنها إذا خُفِّفَت جاز أن تعمل، وكان دليلنا في ردِّ ذلك هو عدم العثور على شاهدٍ يؤيد ذلك القولَ.

هذا وفيما قدمتُ دراسة متواضعة لغوية للنص القرآني، وأرى أن يُهتم بمثل هذه الدراسة، حيث إنَّ فيها نفعاً كثيراً، وأن يقوم بذلك من يُنقِّرُ في كتب السابقين ليكشف عما في فكر علمائنا من عمق، وما يبدو في بعضه من ضعف، وما يظْهرُ فيه أحياناً من أخطاء، وسبحان من له الكمال.

المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة: عبد القادر الجرجاني. دار المعرفة 1978م.
- أسرار العربية: أبو البركات عبد الرحمن الأنباري. تحقيق: أحمد بهجت البيطار. مطبعة الترقي دمشق 1957م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف: أبو البركات عبد الرحمن الأنباري. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة 1953م.
- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري بهامش الكشاف دار الفكر.

- الإملاء والترقيم في الكتابة العربية: عبد العليم إبراهيم. مكتبة غريب.
- البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي. القاهرة 1328هـ.
- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة بيروت ـ لبنان.
- بغية الوعاة: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- البلاغة العربية في ثوبها الجديد «علم البيان»: د. بكري الشيخ أمين. دار العلم للملايين.
- تاج العروس: السيد مرتضى الزبيدي. دار ليبيا للنشر والتوزيع والإعلان. بنغازي ـ ليبيا.
- التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء العكبري. تحقيق: علي محمد البجاوي. مكتبة عيسى البابي الحلبي.
- التبيان في تصريف الأسماء: د. أحمد حسن كحيل. الطبعة السادسة 1978م. مطبعة السعادة.
- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر عاشور. الدار التونسية للنشر.
- تفسير النهر الماد من البحر: أبو حيان الأندلسي بهامش البحر، القاهرة 1328هـ.
- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي. القاهرة. 1967م.
- الجدول في إعراب القرآن: محمود صافي. دار الرشيد دمشق، بيروت.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: السيد أحمد الهاشمي. الطبعة السادسة. دار الكتب العلمية.
- حاشية الأمير على مغني اللبيب: دار إحياء الكتب العربية.
- حاشية الصبان على شرح الأشموني: الطبعة الثانية. القاهرة.
- حاشية يس على شرح التصريح: دار إحياء الكتب العربية. مطبعة عيسى البابي الحلبي. مصر.
- الحال في الأسلوب القرآني: عبد الستار عبد اللطيف أحمد سعيد. منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان طرابلس ـ ليبيا 1984م.
- حجة القراءات: أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة. تحقيق: سعيد الأفغاني. منشورات جامعة بنغازي.

- الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: هارون. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- خزانة الأدب: عبد القادر البغدادي. تحقيق/ عبد السلام هارون. نشر مكتبة الخانجي.
- الخصائص: ابن جني. تحقيق: محمد علي النجار. دار الكتب المصرية 52 - 1956م.
- شرح ابن عقيل تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
- شرح الأشموني مع حاشية الصبان: الطبعة الثانية - القاهرة.
- شرح بدر الدين محمد بن مالك على لامية الأفعال: مكتبة ومطبعة الحلبي 1948م.
- شرح التسهيل: ابن مالك. تحقيق: د. محمد المختون، د. عبد الرحمن السيد، دار هجر للنشر والتوزيع والإعلان.
- شروح التلخيص: دار الهادي. بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، 1992م.
- شرح شافية ابن الحاجب: تحقيق الزفزافي وآخرين. 1356هـ.
- شرح الرضي على كافية ابن الحاجب: تحقيق: يوسف عمر. منشورات جامعة قاريونس بنغاري - ليبيا.
- شرح المفصل: ابن يعيش. المطبعة المنيرية - القاهرة.
- شرح الفصيح: ابن هشام اللخمي. دراسة وتحقيق: مهدي عبيد جاسم. سلسلة خزانة دار صدام للمخطوطات 4.
- شذا العرف في فن الصرف: الشيخ أحمد الحملاوي.
- الصاحبي: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: السيد أحمد صقر. دار إحياء الكتب العربية. مطبعة فيصل عيسى البابي الحلبي. القاهرة.
- الصحاح وتاج اللغة: للجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار.
- العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب: يوهان فك. ترجمة د. رمضان عبد التوّاب، نشر مطبعة الخانجي. القاهرة.
- عمدة الحفاظ تفسير أشرف الألفاظ: أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي المعرف بالسمين الحلبي. تحقيق: عبد السلام أحمد التونجي. منشورات: جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس - ليبيا.
- علم البيان: د. عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية. بيروت.

- علم الصرف: دراسة وصفية. د. محمد أبو الفتوح شريف. دار المعارف ـ مصر.
- علم المعاني: د. عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية ـ بيروت.
- علم المعاني: د. درويش الجندي. دار نهضة مصر للطباعة والنشر ـ القاهرة.
- علوم البلاغة: أحمد مصطفى المراغي. دار القلم. بيروت.
- العمدة: لابن رشيق القيرواني. دار الجيل.
- فن البديع: د. عبد القادر حسين. دار الشروق. ط أولى 1983م.
- في أصول النحو: سعيد الأفغاني. ط ثانية. مطبعة جامعة دمشق 1964م.
- في النحو العربي نقد وتوجيه: د. مهدي المخزومي. دار الرائد العربي ـ بيروت.
- القاموس المحيط: مجد الدين الفيروز أبادي.
- كتاب الإملاء للشيخ حسين والي ط(2) 1331هـ 1913م.
- كتاب سيبويه: تحقيق: هارون. عالم الكتب.
- كتاب السبعة في القراءات: لابن مجاهد تحقيق: د. شوقي ضيف. الطبعة الثالثة، دار المعارف ـ مصر.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: محمود الزمخشري. دار الفكر.
- لسان العرب: ابن منظور. دار المعارف.
- لهجات العرب لأحمد تيمور (سلسلة المكتبة الثقافية 390) ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1393هـ 1973م.
- المحتسب: أبو الفتح ابن جني. تحقيق «على النجدي ناصف، د. عبد الحليم النجار، د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي. القاهرة 1386هـ.
- المصباح المنير: الفيومي.
- مختصر شواذ القرآن: ابن خالويه. مكتبة المتنبي. القاهرة.
- معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق الزجاج. تحقيق: د. عبد الجليل شلبي. عالم الكتب.
- معجم الأدباء: ياقوت الحموي. ط ثالثة. دار الفكر للطباعة والنشر.
- المغني في تصريف الأفعال: عبد الخالق عظيمة. دار العهد الجديد للطباعة. القاهرة.
- مغني اللبيب: ابن هشام الأنصاري. تحقيق: د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله. مراجعة: سعيد الأفغاني. دار الفكر.

- المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة: د. محمد سالم محيسن. دار الجيل.
- منار السالك إلى أوضح المسالك: محمد عبد العزيز النجار. مطبعة الفجالة - القاهرة.
- موطئة الفصيح لموطأ الفصيح: تحقيق: د. عبد الستار عبد اللطيف أحمد سعيد. رسالة دكتوراه في الآداب، جامعة عين شمس 1992م.
- النشر في القراءات العشر: أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري. مطبعة التوفيق. دمشق 1345هـ.
- النوادر في اللغة: أبو زيد الأنصاري. تحقيق: د. عبد القادر حسين. منشورات جامعة الفاتح.
- همع الهوامع: جلال الدين السيوطي. تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم. دار البحوث العلمية. الكويت.